الملحمة الوطنية

و

قضية الشعر الحديث

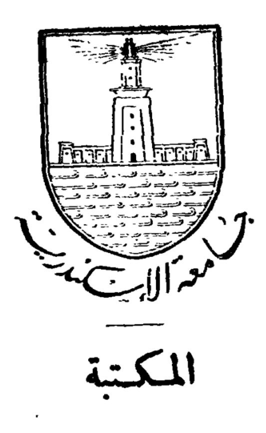
للدكتور

حلمى على مرزوق

تقـديم

المرحوم الدكتور محمد مندور




جامعة الإسكندرية
المكتبة

الملحمة الوطنية
و
قضية الشعر الحديث

للدكتور

حلمي علي مرزوق

تقديم

المرحوم الدكتور محمد مندور

الفهـــرست

الموضـــوع | الصفحة

الفهـــرست

الموضـوع | الصفحة

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٧	٣	بالصوت	بالسوط
٨٣	١	إخدام	إخدع
١٢١	٤	من عماليك العراء وحضارات الكهوف	من سلاطين الكهوف وحضارات العراء
		epistomology	epistimology

المرجع المذكور في ذيل ٢٠٦ كرر خطأ

ديوان

الملحمة الوطنية .

و

«قضية الشعر الحديث»

للدكتور

حلمى على مرزوق

دكتوراه فى الآداب وليسانسيه فى القانون

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان واهداء

هذه «الملحمة الوطنية» هي الفصل الذي عشناه من فصول الثورة المتصلة في مصر منذ الحملة الفرنسية ودخول الشرق في حيز الاستعمار العالمي ، وهو أشدها خطراً في حياة الشعب المصري وحياة الأمة العربية لأنه يفرق بين عهدين متدابرين في كثير .

فلقد أفضى انتهاء الحرب العـــالمية الثـانية إلى نـكبة فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وانفعلت نفوسنا فى صباها على ذلك العهـــد بما نقمته من ضلع الاستعمار فى هذه النـكبة ، وبمـا كشفت عنه من فساد فى الحـكم لم يسبرأ منه أحـد من الملوك والأمراء ، أو الحكام والعظماء ، سواء فى مصرأم فى العـــالم العربى .

وتلاحقت الأحـداث بعدها تلاحقاً شذ عن الضوابط والقوانين ، كان الناس يصبحون معه على غير مايمسون ، ويمسون على غير مايصبحون ، فـكانت ثورة ٢٣ يوليو

سنة ١٩٥٢ م خاتمة طبيعية لهذا القلق النفسى والسياسى والاجتماعى ، وفاتحة عهد اختلف عما قبله فى طبيعته وما تفرع عليها من المشكلات ، وفرق بين عهد قصاراه النقد أو النقض وعهد يزيد عليه البناء أو إرادة الصياغة والتغيير.

ولا أريد بذلك أن أضفى على هذا « الشعر » وموضوعه هذه الأحداث ، ما قد يكون عاريا عنه من ملامح الواقعية وخصائصها ، فلنا فى تفصيل ذلك رأى يراه القارىء فى « قضية الشعر » التى أثبتناها آخر الديوان ، وإنما نريد فى هذه العجالة أن نبين وجه التدابر بين طرفى هذه الحقبة

وطبيعة الأحداث التى تؤلف وقائع هذه الملحمة وقصائدها .

ولقد كان مقدرا لهذه الوقائع أن تنتهى بمعركة بور سعيد ١٩٥٦م. وما كتبناه فيها من قصائد كانت آخر ماسمعه أستاذنا الدكتور مندور فأملى علينا بعدها مقدمته فى غضون عام ١٩٥٧م. إلا أن البحث والدرس إلى غيرهما من شئون الحياة صرفتنا عن الديوان ونشره ، وكان فى ذلك الخير فيما أزعم ، فلقد جاءت القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١ م. فكتبنا قصيدة « الشعب العظيم » ، ثم مات « فاروق » فأضفنا

هذه وتلك إلى وقائع الملحمة لتكون خاتمة بمعنى من المعانى يصح الوقوف عندها .

وكان حريا بنا أن نثبت القصائد كما جاءت واحدة بعد الأخرى ، إلا أننا لم نلتزم ذلك على إطلاقه لاختلافها فى الضعف والقوة أو التقليد والتجديد أو الرومانتيكية والواقعية أو غير ذلك من الأمور التى لا محيص من النزول على حكمها فى التقديم والتأخير دون الإخلال بمجرى الملحمة أو تتابع الأحداث .

أما عن « الملحمة » اسما لهذا الديوان فأمر لم نصر إليه

اقتفاء لآثار الغرب ، ولا استكمالا لنقص زعموه فى الأدب العربى، فالملحمة كما قلنافى كتابنا عن «النقد والتفكير الأدبى...» ليست مزية مطلوبة فى العصر الحديث ، وإنما هى مزية مرهونة بعصرها مستحبة من أهل زمنها ، وحسبنا من هذا الاسم تلك الوحدة الجامعة لأحداث الديوان والصدور فيها عن الحماسة القومية والذات الجامعة التى تناط بها خصائص الشعر الملحمى عند النقاد ومؤرخى الآداب .

وإذا كان أستاذنا الدكتور مندور قدسبق إلى دارالبقاء فإنه قد ترك فى أعناقنا ديناً ضخماً لايقتصر على حفز الهمم

وتآلف الأنصـــار والتلاميذ وإنما امتـد إلى المكاثرة بهم والاعتداد بمواهبهم وآدابهم فكان بذلك أباً وشيخاً وأستاذاً يهدى اليه أحب مايهديه تلميذ لأستاذه .

فإلى روح أستاذنا وشيخنا الدكتور محمـــد منـدور أهدى هذه الملحمة أو هذا الديوان ؟

ح. م.

١٩٦٧

شعر الريادة الاجتماعية

بقلم

الدكتور محمد مندور

نشرت يوما فى جريدة « الشعب » مقالا عن تطور الشعر العربى الحديث وميزت فى هذا التطور بين ثلاث مراحل .

المرحلة الاولى

تمثل مرحلة البعث للشعر العربى بديباجته القوية الخالية من الزخارف اللفظية السقيمة التى كانت تشبه الزخرفة على ثوب خلق ، ولكنها من جهة المضمون كانت تجرى فى محيط الوظيفة التقليدية للشعر العربى ، وهى تسجيل الأحداث الاجتماعية والسياسية والتعليق عليها ، فكان الشعراء أقرب مايكونون إلى الصحفيين أو نفر من الصحفيين الذين يتابعون الأحداث ولكنهم لايسبقونها ، فشعر تلك المدرسة التقليدية أقرب مايكون إلى التسجيل والمتابعة منه إلى القيادة

وتوجيه الأحداث ، وهذا هو ما نجده عند شعرائنا التقليديين الذين ابتدأوا حركة البعث الجديدة فى شعرنا المعاصر من أمثال البارودى وشوقى وحافظ ، فى عصر لم يكن الأديب أو المفكر يستطيع أن يستقل بالرأى ويجهر به ، بل ولم يعرف هو نفسه ذلك الرأى لتشتت الأفكار بين التيارات المختلفة ، حيث كنا نجد من يناصرون الجامعة العثمانية أو الخلافة والوحدة الإسلامية أو يؤثرون الوحدة العربية أو الوطنية الحمائية ، فضلا عمن كانوا يجنحون سراً أو علانية إلى الغرب وحضارته ، ولو ساقهم ذلك إلى مهادنة الاستعمار والطغيان الأجنبى .

المرحلة الثانية

كانت المرحلة الثانية وليدة تلك الحملة القوية التى قادها

جماعة « الديوان » وبخاصة الأستاذان عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني اللذان هاجما الشعر التقليدي مهاجمة عنيفة واتهماه بأنه شعر مناسبات رخيصة ، وتبعية ذليلة لذوي السلطان ، وقالوا إن الشعر وجدان ، وآزرهم في هذه الدعوى شعراء المهجر وعلى رأسهم الأديب الناقد ميخائيل نعيمه ، صاحب كتاب « الغربال » الذي عاصر كتاب « الديوان » .

واذا كانت هذه الحملة النقدية لم تصاحبها حركة خلق شعري تساير هذه الدعوى فإن جماعة « أبولو » التي تبلورت حول المجلة التي حملت هذا الاسم في المدة من ١٩٣٢ الى ١٩٣٥ قد حققت الدعوى إلى الشعر الوجداني على أوسع نطاق ، وإن اختلف هذا الشعر عند شعراء هذه الجماعة باختلاف

الأمزجة الفردية ، فرأينا الوجدان الثائر عند (الشـــابى)
والوجدان الأبيقورى المنبسط المتفتح لمباهج الحيـــاة عند
(على محمود طه) ، والوجـدان الظامىء إلى الحـب ، المتفجر
لهفة عند (الدكتور ابراهيم ناجى) ، والوجدان الحزين
المنطوى الشاكى عند (حسين كامل الصرفى) .

وقد عززت تضاريس الحياة العامة هذا الاتجـاه ، إذ
كان يحكم مصر عندئذ مستبد طاغية يستند إلى سلطان الانجليز
والسراى فى هـذا الوقت هو « اسماعيل صـــدقى » الذى كمم
الأفواه وحال دون الحـديث فى مشاكل الوطن والمجتمـع ،
فلم يعد أمام الشعراء مجال غير الحديث عن وجدانهم الفردى
وآلامهم وآمالهم ومباهج حياتهم الذاتية .

وحطم الشعب القيود، ونما الوعى الاجتماعى فى البلاد، فإذا بجيلنا الجديد يعيب الشعر الذاتى، وينفر من وجدان الذات الفردية، وينتقد الفن للفن وأصحاب البروج العاجية ليطالب بالعودة إلى الشعر الاجتماعى وإلى مشاكل المجتمع والوطن وقضاياه الكبرى ولكنه فى هذه المرة يأبى أن يكون الشعر سجلا للأحداث وتابعاً لها، ويطالب الشعراء والأدباء بأن يصبحوا رواداً المجتمع، يعرفون مايريدون لمجتمعهم، ويلتزمون بالكفاح عما يريدون لهذا المجتمع باعتبارهم أفراداً فيه، يصيبون من خيراته، ويشقون بمحنته ويعتزون بعزته، ويذلون بذله.

وهكذا لاحظنا موجة العودة إلى الشعر الاجتماعى، ولكن على أساس جديد غير الأساس الذى ساد عند من

نسميهم الآن بالشعراء التقليديين ، ورواد حركة البعث الادبى الجديد ، وهـذا هو جوهر الاتجاه المعـــاصر فى شعر جيلنا الناهض وإن اختلفت تسمية هذا الاتجاه وأطلق عليه البعض أنه « الأدب فى سبيـل الحيـــاة » ، وأطلـق عليه آخـرون «الاتجاه الواقعى» ، وقال نفر ثالث إنه « الاتجاه الاشتراكى » الذى عززته ثورتنا الناهضة بفلسفتها الاجتماعية الجديدة .

هـذا هو التخطيط الذى حاولت أن أظهر مراحـله فى المقال المشار إليه ، ومع ذلك لم يـكد يظهر هـذا المقال حتى انبرى أحد مشايخ الأزهر القدماء ليعارض هذا الرسم البيانى الذى لم أمله على تطور شعرنا المعـاصر بل استقيته منه فى أمانة واستقصاء .

وقد زعم ذلك الشيخ أن الشعر بل والأدب عامة لايمكن أن يسبق الأحداث ولا أن يقودها أو ينهض بمهمة الريادة ، بحجة أن الشعر انفعال ، والأديب أو الشاعر لاينفعل بالأحداث إلا بعد وقوعها ، وكأننا لانستطيع أن ننفعل بفكرة أو بأمل أو ضد ظلم أو محنة ، بل كأننا لانستطيع أن ننفعل بأشواق الروح، ومطالب الحياة العزيزة وكأن الشعراء والأدباء عبر التاريخ وفى كافة بقاع العالم لم يقودوا الثورات، ولم يمهدوا اليها وينشروا الوعى بها ، ومن المعلوم أن البؤس نفسه لايحرك الشعوب وإنما يحركها الوعى به ، والأدباء والشعراء هم وحدهم القادرون على نشر هذا الوعى لأنهم يملكون من أدوات الإثارة والتحريك ما لا يملكه الساسة وقواد الجيوش .

شعر وأدب الوعين من جيلنا الناهض هو - إذن - شعر ريادة اجتماعية وقيادة لقوميتنا فى مدارج المجد والكفاح من أجل الحياة الكريمة ، وهو لا يستخدم فى هذه الريادة الأسلوب الخطابى الأجوف ، بل يستخدم أساليب الفن المرهفة كالقصص والمشاركة الوجدانية التى تشعر القارىء بأنه لايتلقى توجيهاً من الشاعر ولا وعظاً أو إرشاداً بل يشترك مع الشاعر فى الانفعال للأحداث والتلهف إلى توجيهها وفقا لمطالب الحياة العزيزة وأشواق الروح المتلهبة .

الملحمة الوطنية

وإنه ليسرنى أن أقدم لجميع مواطنينا بما فيهم شيخنا الازهرى هذا الديوان ليرى فيه كيف يستطيع الشاعر أن يقوم بدور الريادة الاجتماعية ، وأن يصدر فى شعره عن روح الاجتماع والمشاركة الوجدانية بينه وبين إخوانه المواطنين .

فالشاعر « حلمى على مرزوق » لايندب فلسطين ولا يرثيها ، ولا يقف عند التوجع على بلواها ، بل ولا يرثى شهداء الظلم والطغيان السياسى والاجتماعى فى عهود الظلم والطغيان ، بل يصورهم تصويرا سريعا خاطفا ليوفر جهده وطاقته الانفعالية على إثارة نخوة الرجولة فى القلوب الثأر

للوطن العربى الكريم ، والانتصاف من الظلم والطغيان ،
وبذلك يقود مجتمعه ويحاول ريادته بروح الرجولة بعد أن
حدد الهدف، وعرف مايريد ، وحاول أن يشركنى أنا وأنت
وأخى وابن عمى وابن عمك فى شعوره وفى هـدفه ، وفى
الوسائل المفضية إلى هذا الهدف النبيـل ، فهو يخاطبنى
ويخاطبك من فلسطين الشهيدة بقوله :

بالذى آساك أو أشجاك قلبى مفعم
فأنا مثلك موتور وأنف مرغم
فانطلق واثأر ، وثر ، أقدم ، فإنى ها هنا
قد وهبت النصر آمالى وأحلام المنى
لم أعد أبصر إلاك ، إذا الخطب دنا

إنما عمرك من عمرى ، وفى جنبيك قلبى
والدم المسفوح ، آمالى ، وأحلامى وحبى

وهو عندما يتحدث عمن استشهدوا فى سبيل الوطن على المشانق لا يقول :

« علو فى الحيـــاة وفى الممات »

وإنما يستثيرنا كيـلا يضيع دم هؤلاء الشهداء هـدراً وكى يتحقق الهـدف النبيـل الذى قدموا حيـاتهم قربانا له ، فيقول على لسان أولئك الشهداء :

إن أنا غيبت ، يامصـر ، فمن جوف الـتراب
سوف تحيـا روحى الحـرة فى عـزم الشبـاب

وعليها من بقايا الظلم أسواط العذاب
كلما أرهبن آبائى ، وقد ألهبن ظهرى
وجئت أى شكلى ، تمسح الدمع بقبرى
صاح فيها دمى الموتور يدارك ثأرى
سوف تحيا روحى الحرة فى هذا الألم
سوف تحيا فى الدم المسفوح من أجل صنم
سوف تحيا عندما يأتى المساء أو الصباح
سوف تحيا فى الدم الثائر من تلك الجراح
سوف تحيا ، سوف تحيا ، سوف تحيا ، لا بصدرى
إنما تحيا وإن طال المدى فى صدر غيرى

وشعر الريادة الاجتماعية كما ترى شعر ثائر متفائل ،

لا يأس ولا استسلام ، بل فيه تفاؤل وعـزم على مغالبة الظلم والطغيان والذل :

فاحطم بكفك أو بفأسك كل هاتيك القيم
واعص الحياة ، إذا أرادت الحياة على الندم
الناس حولك ظامئون إلى الكفاح فكن يدا
تبنى وتحطم أمسها . . . وتعيد ماصنعت غدا

ويذكرنى شعر « حلمى مرزوق » باعـتراف صادق الشـاعر « حسن كامل الصرفى » فى مقدمة ديوان « الألحـان الضائعة » وهو قوله :

« ان ثورته النفسية قـد كانت سبباً فى خروجه على الذوق العروضى بجاراة للذوق الموسيقى »

« والصرفى » يقصد بالذوق الموسيقى هنا ، موسيقى روحه الثائرة التى تلتمس لها أوزانها الخاصة ، وهى أوزان لاتخرج على الموسيقى وإن خرجت على العروض التقليدى ، فالوحدة الموسيقية عنده ليست بالضرورة وحدة البيت ، وانما تتحقق موسيقى الشعر فى ذوقه بل فى روحه بمقومات هذه الموسيقى وهى الحكم الزمنى أى « التفعيلة » و « الايقاع الصوتى » الذى يعطى هذا الحكم اتزانه الموسيقى ، ومن هنا نحس أن شاعرنا لم يخترع أو لم يفتعل ترتيبا طوبوغرافيا خاصا لقصائده بعد أن كتبها فى أبيات عروضية تقليدية ، بل خرجت تعبيراته منغمة وفقا لنظام روحه الثائرة على نحو ماتخرج الروح متضمنة الحنين عند مولده فى غير افتعال ولا تصنع ولا محاكاة عمياء ، أو استجابة لبدعة سائدة .

ومن منا لا يحس نغمات روحه الثائرة فى قوله عن مأساة بور سعيد :

وصلوا اليك الجاحدون

زرق العيون ،

ليدنسوا الشرف الرفيع

وقداسة الشرق العظيم

فأبى وجدى أورثانى الحقد من زمن قديم

لذلك الشعب الوضيع .

باسم الحضارة يأفكون ،

ويقتلون ، ويغصبون ، وينهبون ، ويحشدون ، ويشنقون

وبلفظها يتشدقون .

قتلوا « كريم » باسمها . . .

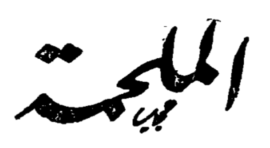
هل تذكرين ؟
قتلوه . . . ! ! !
قاتله « نابليون » الدعى الطاغية ،
جلاد أحرار الشعوب الواعية .
لم تعرفى التاريخ حتى تحقدى ،
فجميع عمرك لم يزل سبعا سنين .
فتحملى ،
وتجلدى ،
أو فألمى . .
ماشاء للجرح الكبير بك الألم
فأنا أبوك وكيف أعرف أن أنتقم .
أخوك فى الميدان ، خلف الدار ، قد حملا البنادق ،

والسائكنون بجنبنـــا يتربصون عـلى المفـارق .
وجميع سكان المدينة فى الأزقة والشوارع
نصبـوا المدافـع .
وبنـات بواب العمارة ،
أخذن فى حرص مواقع .
والـكادحون . . .
وبائع اللب الشجاع ،
وجميـع من سميت ظلماً بالرعاع
كمـا أذاع المعتـدون ،
أيـام كانوا يحـكمون ،
سبقـوا إلى حمـل السلاح .
حتى الصغار يأبون إلا يشركوا شـرف الـكفاح .

وشعر «حلمي علي مرزوق» لم يحترم الموسيقى فحسب بل احترم لغة الشعر ووسائل تعبيره، ونأى بها عن النثرية التقريرية، ومن المعلوم أن الشعر تصوير بياني، كما أنه موسيقى روح قبل كل شيء، وإذا خلا الشعر من الموسيقى والتصوير البياني خرج الى النثر التقريري الذي لايجوز أن يسمى شعرا. وإذا كان «مرزوق» لم يصطنع لغة القدماء فإنه قد احتفظ مع ذلك في شعره بنصاعة الديباجة، وقوة التعبير في غير تكلف، ولا افتعال، ومن المعلوم أن التكلف يفسد الشعر خاصة والأدب عامة، لا من حيث شكله وخصائص تعبيره فحسب بل ومن حيث مضمونه أيضاً، وذلك لأن الأديب أو الشاعر المتكلف يفكر الفكر، ويحس الإحساس مرتين، مرة ليدركهما في وضوح ومرة أخرى

ليحتـال عليهما حتى يسكنا التعبير المنمـق المجتلب الذى يريده
ويظن فيه غناء . وعند إعادة التفكير على هذا النحو لابد أن
تفسد الفكرة ، وينطمس الإحساس أو يفقـدا من نضرتهما
التلقائية النابضة بالحياة ، ومن حسن حظ شاعرنا أنه لم يقع
فى مثـل هـــذا الخطأ ، فجاء تعبـيره ومضمونه متلازمين
لا تستطيـع أن تقطع بأيهما أفضل وأكثر إثارة إلا اذا
استطعت أن تجزم بأى شفرتى المقص أقطع .

محمد مندور
سنة ١٩٥٧


الملحمة

إصرار

سنعيش رغم الحادثات

ورغم ما تذر القيود . .

من البلاء .

وبرغم كل التافهات

شعباً يسود

وله مكان فى الحياة

وله وجود

وله أمل

وله كيان كالجبل

تهوى على جنباته أُبن الزمن

ليعود مرفــوع الجبين

فى وقفة العملاق يهزأ بالمحن

وبكل ماصنع الطغاة .. ويصنعون

ويهزأ بالسجون

وبغضبة الجاه المزيف وامتعاضات الجنون .

*

خطت عليه يد القــدر

من قصة الطغيان آلاف الصور

فما استكان ،

ولا برم

ولقد ألم .

زحمته فى عرض الطريق

مواكب لاتنتهى.

فلكل حى زامروه

ولكل طبل قارعوه

ولكل شيخ تابعوه

وتابعو أتباعه ،

والعازفون له بماذا يشتهى .

ولكل «حيطة» أمم

يسعى بها حرص ويقتلهم نهم

والبائعون نفوسهم بيع السلم

مثل الذباب . .

يتهافتون

فى كل عرس يطعمون

ويرقصون ، ويشربون ، وينعمون ، ويطربون .

والقارع الطبل الكبير

يسعى بذمة من أناب

لا تغضبى أو تعجبى

إن كنت جاهلة بعالم تعلمى

فجميعهم هذا البلاء ،

والأدعياء . .

من كل فج ينسلون

مثل الوباء ،

يزوون مابين الحواجب والجبين

ويفلسفون لك الغباء

زكموا أنوف الكادحين
ومشوا عليهم فى التراب
لا يسمعون أنينهم ..
إلا كما سمع الغراب
سخافة «العهد القديم» .

*

سنعيش شعبا لا تضعضعه الخطوب
لم تعرف الأحداث إلا منه إصرار الشعوب
شعب عنيد
عيناه فى الأفق البعيد
تستصرخان طلائع الأحرار فى أرض العبيد
ولسوف يبلغ ما يريد

وينرد قافلة الضلال

إلى الوراء ..

خلف الجبال ،

أو الوهاد أو الرمال أو التلال

تطغى عليها السافيات

فلا تعود ،

ولن تعود .

ثورة أب

أبني لا تضحك ولا تبسم وكن مثلي أنا
أبكي على تلك الحياة هنا وأنعى حظنا
قد راح يلعن هذه الأرض الخبيثة قبلنا
شيخ ، تبدلت الحياة به ولم تصدق معه

إلا كما لمع السراب بجفنه كى يخدعه

*

أبنى لا تضحك ولا تبسم ولا تك إمعة
فلأنت من طمس الضلال ، وليس يعلم ، مدمعه
فاثأر لدمع شقاء قومك جاهل من ضيمه
فأنا ، وعمك ، وابن عمك قد أذلتنا القيود
نخطو فنسائل ماالنعيم ؟ وماالحياة ؟ وماالوجود ؟
أحكاية تروى بأفواه كأفواه الصغار
ما برهنا صدق ويعوزها دليل كالنهار
أم تلك أوهام .. كأوهام الجنون الظاهرة
وهناك دنيا للسعادة غير دنيا الآخرة ؟؟

قالوا . . وأكد صاحب الدين الحنيف يمينه
كذب المحدث ما أضل حديثه ويقينه

*

أبنى لا تبسم فما تجدى ابتسامات الغرير
فى معبد الشيخ البتول وملعب الملك الكبير
هذا له قلب الجبان ، وذاك تحميه الألوف
ولأنت.. أنت..كما خلقت، تعيش فى تلك الكهوف
النور ينبع من جبينك ، لا إليك ضياؤه
والمجد تصنعه لغيرك حليه وبهاؤه
والشهد تطعمه ، على سغب ، نفوس الجاحدين
لتموت أنت بعشك المهجور كالكلب المهين
أعداء أرضك ساءهم تعرى ويقتلهم نهم

فمشوا على كبديك سخرية بأطراف القدم
ألفوا أنينك فى المساء وسرهم يأتى الصباح
وأبوك مشدوداً إلى الطنبور تأكله الجراح
وأخوك فى مهد الطفولة هدهدته يد الكفاح

*

لكن لبسمتك البريئة فى دمى ألم يثور
ولها بقلبى ثورة حمراء خالطها الدم
فأنا أبوك وللأبوة قلبها الحانى الجسور

*

هم ذلك اللص الكبير وأنت أطهرهم يدا
لم يعرف الطهر المجنح غير قلبك مرقدا
فابسم لدميتك البريئة ما تشاء فها هنا

قلب سيفرش بالدم القانى سبيلك للمنى
ولسوف تخطو فوق جمجمتى.. وجمجمتى أنا
أقسمت أن تحيا وأن تحيا على أرض الجدود
أقسمت أن تحيا كأسعد مايكون بها سعيد
أقسمت أن يعنو الزمان وأنت تبسم من جديد
فأبوك من خلق الجمال وهم قساوسة الجحود
بالوا على قيم الحياة ودنسوا هذا الوجود

*

رجل الاقطاع

نسيتك مطرقة يدق بها أبى فوق الحديد
ليصوغ من صلب الحياة لك السعادة من جديد
والفأس لم تعرف سوى كفى فى هذا الوجود
وأنا المكب على الثرى أرويه من دمعى أنا
أما عيونك فهى لم تعتد سوى طيف المنى

وبنانك المخضوب لم يألف سوى لمس النهود
نسيتك أحزان الأب المكدود والزمن الجحود
نسيتك أنــة كادح سئم الحيــاة وملها
فغدا يراجع فى المنيــة شوقه وجمــالها
وجهلت لما غاب عنك اليأس من ألم الصراع
والفقر لم يبعث بقلبك بعض أحلام الجياع

*

نسيتك هاتيك الرؤى بين الكواعب والخدور
نسيتك أو أنسيتهــا بين المواخــر والخمــور
فغدوت مثل الصخرة الصماء والطفل الغرير
يرنــو فيضحــكه التجهم فى أسارير الرعاة
ونسيت أنك قد سلبتهم الحياة مدى الحيــاة

لتعيش للصبح الجميل ، وكى يلذ لك الأصيل
فالبؤس والحرمان لم يعرف لنفسك من سبيل
إلا ابتئاس العاشقين ، ورعشة الأمل الجميل

*

ونسيت أنك ترتوى دمعى وتطعم من فمى
ومباهج الكأس التى تحسو هنيئاً من دمى
وأنا الذى رقصوا على أشلائه حياً بنوك
طوراً تسابق بعضهم رجسا وآناً سابقوك
ومشيت مختالا بهم بين الحفاة الكادحين
علمتهم كيف الحياة على شقاء الآخرين

*

كلا ، سينبثق الدجى عن فجر يوم قمطرير

عبست لمقدمه السماء وزغردت فيه القبور
كلا . . سيغبر الضحى يوما وتنشق السماء
والجن تنسل مثل يأجوج تعربد فى الفضاء
وأنا سأحمل معولى وأبى سيزعق فى العراء
وأخى سيحطم قيده . . ليعيش مثلك فى الحياة
ولسوف تضحك للحفاة الثائرين وللرعاة

*

لكن جمعهم الكبير غدا . . سيغشى مخدعك
ولسوف تعلو هذه القدم الشريفة مدمعك
لتعود تضحك من جديد . . للسعادة والشقاء
لكنها ضحكات موتور تسربل بالقضاء

*

الزحف الأخير

سأظل أعمل للصباح ولى أمل ..

أمل كبير ،

فى أنة الشيخ الذى ضاقت به سبل الحياة

وفى ابتسامات الغرير .

فى دمعة المحتاج ، فى القلب المعذب ..
قلب أشباه العراة
وسألت . ما شأن العراة ؟ وما الحفاة ؟ وما الرعاة
فأجبتُ هم شعبى . . وهم قومى أنا
فجميعهم يسعى على قدم ويهتف للدنى
ولهم رجاء . .
كرجاء سكان السماء ،
ولهم وجود
كوجود إنسان يعيش ،
ولهم غضب
قد ثل آساس العروش ،
ولهم هنا .. حق تعلق بالوطن

فهم الذى حفر القناة
وثار فى وجه الطغاة
وعاش بقتات المحن
فحملت عنهم كل أحقاد الزمن
ورحت أنفث ما بنفسى من لهيب
فثرت بالأمس القريب
وسألت ما لهب النفوس ؟
فكنت أول من سأل .
ورأيت آثار الشقاء تشع فى غضب المقل ،
ودخان عاكفة على السندان تطرقه حزينة . .
وظلام آفاق المدينة ،
بفؤاد موتور كسير . .

فقـد الثقـة
بساحة الأرض الطهور المشرقة .
كتفته أوضاع الحياة ... فعاش للزحف الأخير !!!
ورأيت سكان القبور ،
وتجهما يعلو جباها تحترق ،
طفحت عرق
واحمر فى لون الشفق
صدر عريض
قـد كان بالأمس المدنس والبغيض
ضحية الجاه المزيف والثراء الفاحش
فعاش فى كنف الحياة الموحش
فعرفت ماالهب النفوس

وما انتفاضات البشر . . ؟؟؟

وكيف سخرني القدر

لأقود معركة السلام

وأرود قافلة الزمان

إلى الحياة . . إلى الأمام . .

إلى غد لايغتفر ،

فلي بنون

أخشى عليهم من تفاهات الظنون

أخشى عليهم من غيابات السجون

ولي قسم

أن أنتقم !!!

ولي أمل

فى وثبة الشعب الذى ألف الكفاح

ولسوف يرتاد الصباح

فى ذلك الشعب الذى وهب الحياة لنفسه

وغدا سيبعق فى العراء على بقايا أمسه

الزحف المقدس

لا ، لن أمد يدى اليك كما تشاء . . بما تريد
ورضيت تأكلك الرياح الهوج والبرد الشديد
ورضيت ترقص فى العراء على الصقيع مع الكلاب
تشقى ويقتلك الأسى صبراً . . وتنهشك الذئاب
وتنام فوق الوحل مقروراً يغطيك السحاب

ورضيت بجمد حيث أنت كما تجمدت المياه
لا الموت يعرف قلبك العانى..ولا طيب الحياة
لتظل فى الأحياء مفقوداً وفى الأموات حياً
لا صاحب القصر المنيف . . جبينه طلق المحيا
أبدا . . ولا العـــرش الكبير يظل إلا ربه
وبنيه والقوم السجود . . وعابديه . . وكلبه

*

ولأنت يامعتوه ، لاتنفك فى هـــذا الشقاء
تستصرخ الأرض الكئيبة بين أطلال العراء
لتجيبك الآفاق كالحة بألوان الجفاء
ترجو وتأمل حيث لا أمل هناك ولا رجاء
والمنزل المعمور فيـــاض بأنغام المساء

قطرت منافذه المغلقـــة المحاجر بالضياء
وبنوك حولك كالشياه الظامئات إلى الحنين
الريح تصرخ فى رؤوسهم كصرخات الجنون
نشرتهم الأقدار قربانا لعباد الـــترف
لايعرفون من الحياة سوى وجوه السائرين
وتجهم الشيخ المعمم وامتعاضات الصلف

*

ضحكوا لآفاق السماء فردهم صمت قذر
ولأنت يامعتوه ، لاتنفك فى كف القدر
تهذى بأحلام عجاف ضيعت جداً وعم
فاحطم بكفك أو بفأسك كل هاتيك القيم
واعص الحياة إذا أرادتك الحياة على الندم

الناس حولك ظامئون إلى الكفاح فكن يدا
تبنى وتحطم أمسها وتعيد ماصنعت.. غدا

إنى أردت وفى إرادتى الوجود إذا تشاء
فأنا وأنت وقلب أمك فى الحياة له رجاء
حاكوا مؤامرة السياسة والحكومة والقضاء
كى يسلبوك رؤى النعيم ويسلموك إلى المحن
فافزع إلى الفجر الجديد وطلق الماضى العفن
رغباتنا الهدف الكبير.. فنحن أبناء الوطن
ولنحن من خلق الضياء.. فكيف يغشانا الظلام
ولسوف تخطو فى الغد الآتى على هام الأنام
هى قصة الزحف المقدس وانتصارات السلام

شعب وملك

الهوى الثائر فى جنبى ... لا يشبع حسى
والجوى المشبوب أصداء لما تخفيه نفسى
فأنا يامصر كم أترعت من حبك كأسى
ولكم همت بما غنى له قلبى أنا
وأبى لازال يهتز لذكراه هنا

كم ثمنى يوم لم تبخل يداك بالمنى

*

وأخى فى مفرق الارض وكم يأتى الربيع
ضاحكا غنى وكم غنى لواديك المريع
لم يعود جفوة النيل ولا يبس الحصاد
فالمروج الخضر لم تخلف له صفو الوداد
وابن عمى خاشعا آوى هنا وتهجدا
فعلى أرضك أجدادى بنوا لى معبداً
وبنوا لى غيره مجدا بعزم من ثبات
لم تزل آثارهم ترنوا الينا شاخصات
عابسات ، هازئات ، ضاحكات ساخرات !!
لست أدرى . . إنما تعرو إذا أرنو فؤادى

هـزة المجـد ويصروني انتصـار لبـلادي

*

سوف لا أعفو ، فـكم يامصر عفوا قد أتيت
ولـكم أطعمت من قوتي خسيسا وسقيت
وعلى كاهـلي الواهي له عرشـا بنيـت
كي يـكون الذخر إذ ناديت أو عونا ليه
فمشى يختـال في قومي بفضل ردائيه
وعليه من غرور الجـاه لمع شقائيه

*

إن أنا أحجمت يامصر ، فمن يحمي حمايا
أهو ذاك الجاحد المطعوم من ذوب دمايا
أم تراه ذلك الشيخ وقـد شاب الرياء
بين جنبيـه فلم يعرف به طعم الوفـاء

أم ترى الأعداء يحمون إذا نمت الحمى

ولقد عاثوا فسادا وأباحوا محرما

*

هذه ، أرضى ، وذا نبتى ، وذا حرثى وغرسى

وأبى بالأمس كدحا شقها قبلى بفأسى

وأخى يحمل فى جنبيه ماتحمل نفسى

راح فى المصنع يغشاه بمخضل الجبين

وعليه من شقاء الدهر حلم الثائرين

يطرق السندان فى عزم الكماة الكادحين

سوف لا أثأر يامصر .. فإن الثأر عار

إنما أبطش بالطاغين فى عقر الديار

ولادع غيرى جبانا ساخرا هزوا بيه

وأنا أبنى له مجــدا بذوب دموعيه
فهو مثلى .. وأنا فى الذل أحيا مثله
غير انى قد وهبت العمر فضلا دونه

*

إن أنا غيبت ـ يامصر ـ فمن جوف التراب
سوف تحيا روحى الحرة فى عزم الشباب
وعليها من بقايا الظلم مايشبه أسواط العذاب
كلما أرهبن آبــائى وقد الهبن ظهرى
وجثت أمى ثكلى تمسح الدمع بقبرى
صاح فيها من دم الموتور مايطلب ثأرى
سوف تحيا روحى الحرة فى هذا الألم
سوف تحيا فى الدم المسفوح من أجل صنم

سوف تحيا عندما يأتى المساء أو الصباح
سوف تحيا فى الدم المسفوك من تلك الجراح
سوف تحيا ، سوف تحيا ، سوف تحيا لا بصدرى
إنما تحيا وإن طال المدى فى صدر غيرى

بحيرة الدماء

او

(دير ياسين)

فى الفضاء الرحيب .. فى صفحة الأفق يشع منها الضياء

أفعمتها يد القدر العاتى .. فسالت على شفاها الدماء

فهى كالعطر فى عبير شذاها ، كهلال محوطه الظلماء
كخيال .. كطيف .. كحلم .. كسراب تضمه الصحراء
قطعة من ربى الخلد فى فلسطين عليها تصافح الشهداء
تنزى من الرمال اليها ... قطرات من دم حمراء
وخرير الدماء فيها كلحن مثل لحن الحزين رجع سواء
نغم يبعث الجلال فتعرو هزة النفس رعشة هوجاء
كلما خيم السكون عليها .. هاج أوتار نوحها الجبناء
وعليها من فج تروى بلظاهم أجنة أبرياء

*

إقض «صهيون» ما أنت قاض إن جهد الجبان غدر هباء
فغدا تلتقى الجيوش فأشبع نهم النفس من دم ماتشاء

ثم جدد إن أسطعت (ياسين) فإنا علينا الفداء
لم تعود نفسك الخسيسة إلا وثبة الذئب والربوع خلاء
دولة الزور ساعة وسواها دولة الحق ما أتيح البقاء

على أرض المعركة

ها هنا من جفن آبائى دموع ودم
ها هنا أطبق كف وتراخى معصم
وعــلا باسم بلادى هاهنا يوما فم
تحت قصف الرعد نادانى بصوت موجع

وعلته صفرة الموت .. فنـــاداك معى

فانطلق للثـار واستهدى أفانين الحيـاة

ولتدع بالسيف أو بالصوت إرجاف الطغاة

إنما خصمى خصمان عدوى وسلاحى

فلتـكن أنت يمينى إن أنا هيض جناحى

بالذى آساك أو أشجـاك قلبى مفعـــم

فأنـا مثلك موتـور وأنـف مرغـــم

فـكلانا قـــد رمى الدهـر بسهم يؤلم

*

فانطلق واثأر ، وثر ، أقدم فانى هاهنا

قد وهبت النصر آمـالى وأحـلام المنى

لم أعـد أبصر إلاك إذا الخطب دنـا
إنما عمرك من عمرى وفى جنبيك قلبى
والدم المسفوح آلامى وأحلامى وحبى

*

هـاهنا قـد صاح فى قلـبى نـداء مبهم
خـافتا يشتد فى نفسى إذا ما أحجم
فطلتنى رعشـــة الموت وسيفى مثـلم
خاننى من خـان آبـائى وأغراه دمـى
فجثـا ينهش أضلاعى ويفرى أعظمـى

*

فليكن سيفك من خلفى إذا مارحت أعدو
ربما ألقـاه أو يلتق دمى فى الأرض لحـد

ولتكن أنت على عهدك ما أخلف عهد

*

هذه أرضى وهذاك اللواء المعلم
ودمى إن سال لم أضجر بها أو آلم
فهى منى وأنا منها حياة ودم

*

طيف الرياء

حملت كفه الكؤوس مليئات ، وولى ينساب بين الجموع
ساخرا ، يعبر الحياة ويسقى .·. كل آت إليه جم الخشوع
أرقصت حوله الكؤوس كثيرين ، فضاق الرحاب وهو وسيع
أسكرت جمعهم فباتوا صراعا .·. ونداء الضمير غير سميع

كلما هم بالكئوس قليلا .·. بجن بالجمع شاسعات الربوع

قلت من أنت ؟

مالك تستى .·. هؤلاء الوفود مزج الدموع

وعجيب تدنو بكاسك منى .·. وفؤادى يمجه فى قنوع

أنت سر !!

لا ، ولا كنت منه .·. إنما السر بين طى الضلوع

أنا سر عن المصيخ،وجهرى.·. أننى السر فى صدور الجميع !!!

لم يكن بجك الخور اللواتى.·. لحن فى الكأس غير معنى رفيع

وإحاء الضمير فى عالم الشيب بلاء أشاب رأس الرضيع

قلت من أنت ؟

قال عزوف .·. عن شفاه الأبرار طهر الركوع

فبخمرى أعيش فى عالم الأ .·. رض ، وكأسى رائدى ومطيعى

قلت : طيف الرياء ! !

قال : وكأسى .·. مازهاها مزاج سم نقيع

*

آلمتنى الحياة مذ عشت فيها .·. بفؤاد يأبى على خضوعى

راهب خاصم الحياة فأحنى .·. يلعن الدهر فى الزمان الوضيع

يارسول الله

يارسول الله ما لقياك فى العالم صعب
أنت فى عزمة أحرار إذا للحق هبوا
وعلى الطاغين فى الآفاق لاتنفك حرب
يارسول الله ما لقياك فى العالم صعب

*

أنت فى غضبة موتور سعى للثأر عضب

أنت فى أهبة مشتاق إلى العلياء وأب

أنت فى جوف شهيد يرتمى للموت قلب

أنت فى دمه الطاهر إيمان وإشراق وحب

لم تزل تعصف بالباطل أيان يشب

يارسول الله ما لقياك فى العالم صعب

*

أنت فوق الشك إما عانق الآفاق ريب

جئت والدنيا كما شاءت بها الفوضى تخب

دولة الظلم لها فى الأرض حكام وشعب

ومليك ألهته الطاعة العمياء رب

وعباد سادر فى الجهل يزداد ويربو

وضمير قد خلا إلا من الأوهام جدب

كنت ركب الهدى والعالم للشيطان ركب

والذى جنباه من جنبيك لايعييه طب

*

يارسول الله إن يعصف بنا فى الأرض خطب

فضياء ليس من نور الهدى لاشك يخبو

وجياد لسن من خيلك فى الميدان تكبو

يارسول الله مالقياك فى العالم صعب



سألتنى عن الربيع ..!! وقلبي راهب غره سراب الأمانى

قلت: هذا الربيع تعنين ؟؟؟ قالت : وجمال الربوع فيها سبانى

قلت:والزهر والرياض.؟؟فقالت وارتعاش الظلال فى الخلجان

قلت: والصفو فى السماء..؟ فقالت: وانطلاق العصفور فى الطيران

قلت: والغصن إذ يميد..؟ أجابت: وحفيف الأوراق في الأغصان

*

آلمتني ولم تزل تتغنى بجمال الربيع والوديان

قلت: فالليل، هل أباح دجاه .!! أم أباح الفؤاد للاحزان

وبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها النشوان

وانبلاج الصباح هل عاد باليمن فيرجى من موحشات الزمان

أم ترى عوده إلى نهاراً مثل عود السراب للظمئان

والذى قلبه كقلبي معنى عنده الصبح والدجى سيان

*

هذه فرحة الفراشة فى الحقل .. وعيد الزهور فى البستان

هذه فرحة الطيور وللطير اغتباط بزرقة الغدران

هذه فرحة الحيـاة .. فهل شمت الحيـاة فى وجدانى

لم أعد أبصر الحياة زهورا .. وطيورا تسعى إلى الأفنان

فربيعى وقد سألت وجودى ووجودى رهين بعض الأمانى

*

موكب النصر

أنت فى دهرى كالحلم إذا يغشى فؤاد الساهر

آسر الرؤية فياضا بإيمان القوى القاهر

كلما طوف فى قلبى تلقاه يخفق ظاهر

وعليه من شعاع النصر أحلام الفؤاد الثائر

عنده ترفض آلامى حولى كارفضاض السامر

والذى جرّحه الماضى ليأسوه جلال الحاضر

وأنا لازلت كالمشدوه فى حلم مشوق ساحر

وعلى وجهى إشراق ، وإشفاق ، ويمن الصابر

خلته من فرط هاتيك الرؤى وهما تغشى ناظرى

واشرأب الدهر فى قلبي يرنو كالعيي الصاغر

أهبة الموتور أعياه على ظمأ جهاد الواتر

حمّلته فتيـة حفت بإيمـان وقلب عامر

بعثت فى موكب يسرى إلى هذا الوجود العاثر

حولها الآمال تنساب من الماضى السحيق الغابر

خافتات ، باغمات . شاحبات كالشعاع الفاتر

حطمتها سطوة البغى فماتت فى سماء الخاطر

واحتواها حلكة السجن فعاشت فى ظلام غامر
بين ذل ، واكتئاب ، وعتو ، وامتهان سافر
مثلما تحيا بقايا الطهر فى قلب الغوى الفاجر

*

كانت الأحلام كالأوهام فى مصر خيال الشاعر
ونفوس غاضت الآمال فيها كالحطام الداثر
يعبر النصر عليها ثم يمضى كالسراب العابر
رده عزمك فارتد إليها فى جلال الآمر
آنت فى دهرى كالحلم اذا يغشى فؤاد الساحر
والذى جرحه الماضى ليأسره جلال الحاضر

أمة واحدة

أخى فى العـــراق ..

وفى سورية ،

وفى الأردن الحرة الواعية ،

أخى فى الجزائر بين الدماء

تسيل على إخداع من شهيد
وأخرى تلطخ وجه الرمال
أخى فى الجنوب ، .
وفى كل أرض عليها رجال ..
رجـــال أسود ،
لهم عزمة فى الكفاح المرير
تهـــد الجبال ..
وتقرع باب الحياة الكبير

*

أخى فى الحنين ..
أخى فى الأنين ..
أخى فى الأمل ..

وفى الذكريات التى لم تزل
تلطخ بالعار وجه الطغاة ،
وتصبغ آثارهم فى الحياة
بلون الشقـــاء . .
شقاء الشعوب التى مصها ،
وحطم أحلامها فوقها
بقلب جحود ،
يدنس كل معانى الوجود
أخى فى القيود
وفى ظمأة لدماء الغزاة
فأنا على موعد فى القناة

*

ـه

على موعد فى ثغور الشام ،

فباسم السلام . .

وباسم الملايين من شعبنا ،

أخى قد دعوت فكن بيننا

لنرفع فى الرعب راياتنا

مرفرفة حرة ضاحكة

أخى قد دعوتك للمعركة .

دعوت وفى مهجتى أنتقم . .

وأن أنتصـــر ،

بعزم يحرك كف القدر

ويدفع أيامنا للغـد

تحرك فإنا على موعد

*

على موعد فى ثغور الشمال
نـرد الضـلال
ونقرع هام العدو اللدود
بحد السيوف ..
وغير السيوف ،
ونطرحه فى العراء المخيف
لذر الرمال
وقصف الرعود
يدنسه ساعة من نهار ،
كمقبرة جوفها من نتن
وجمجمة حاكها من عفن
بلاء القفار ،
*

تحف به الجن حف الظنون
بقلب قـذر ،
وتعلو بها قهقهات الجنون
وسخرية من صروف القـدر

*

أذل الجبـاه !!
وهانت عليه عروض البشر !!!
وقد طالمـا أن أباحت يداه
دما لا يهون ،
وآخر ملء حنايا الضلوع
يسيل على مذبح الذكريات
ويملؤ تاريخنا بالدموع ،
وتاريخ آبائنا بالندم .

وقد طالما أن أشت الجميع
وفرق بين أخ وأب
كمئذنة بين شعب غبي
يؤذن فيها لألفى نبي

*

أخى فى البلاء ،
وفى كل شبر روته الدماء . .
دماء الجدود ،
وجرت عليها رياح السنين
ذيول العفاء
فما تستبين .

*

سنحفظ هذا التراث المجيد

وأيامه الحرة الخالدة

ونبنى لنا أمة واحدة

بعزم الشباب

ونسمو باجيالنا الصاعدة

لهام السحاب ..

وفوق السحاب .

*

بورسعيد

القـــاتلون ! ! !

قتلوا نبيـلا من قليل ،

ابنى نبيل ،

وهو الـبرىء .

ولأنت فوق يدى كمصباح جميل

ما عاد يشرق أو يضىء .

حرموك أفراح الحياة . .

ومن حنان أبوتى ،

بالأمس - قبل اليوم - مثل مدينتى

قد كنت مشرقة الجبين ،

وترف فوقك كل أحلام السلام

لا . . . لن يمر المعتدون ،

لن يشربوا نخب الظلام

وتدق أجراس الطعام

إلا على أشلائنا ،

لا . . لن يمروا من هنا .

*

الهابطون من السماء . .

لايرحمون ،

جاؤا من الأدغال . .

من خلف الجبال . .

من باريس . . البلد القـذر ،

لايعرفون من الحضارة غير مص دم البشر ! !

دم الشعوب الـكادحة .

ويصدرون لهـا البغاء

ومبادئا شاخت وزايلها البقاء

وصلوا إليك البارحة . .

فيهم فلول الانجليز ،

الدولة الشمطاء والبلد العجوز

ليدنسوا قيم الحياة بذلك الوطن العزيز .

*

فالبائعون عروضهم تضحى لهم فينا كرامة
والخائنون الشعب أصحاب الزعامة ،
وصلوا إليك الجاحدون
زرق العيون ،
ليدنسوا الشرف الرفيع
وقداسة الشرق العظيم ،
فأبى وجدى أورثانى الحقد من زمن قديم
لذلك الشعب الوضيع .
باسم الحضارة يأفكون ،
ويقتلون ، ويغصبون ، وينهبون ، ويعتدون ، ويشنقون
وبلفظها يتشدقون .
قتلوا « كريم » باسمها . . .

هـل تذكرين ؟

قتـــلوه . . . ! ! !

قاتـله « نابليـون » الدعى الطاغيـة ،

جـلاد أحـرار الشعوب الواعية .

*

لم تقـرئى التـاريخ حتى تحقـدى ،

فجميع عمرك لم يزل سبعا سنين .

فتحمـــلى ،

وتجلـــدى ،

أو فـألمـــى . .

ماشاء للجرح الكبير بك الألم

فأنا أبوك وكيف أعرف لا أنتقم .

أخوك فى الميدان ، خلف الدار ، قد حملا البنادق ،

والساكنون بجنبنـــا يتربصون عـلى المفـارق
وجميـع سكان المدينة فى الازقة والشوارع
نصبـوا المدافـع
وبنات بواب العمارة ،
أخذن فى حرص مواقع
والكادحـون . . .
وبائع اللب الشجاع ،
وجميع من سميتهم ظلماً بالرعاع
كما أذاع المعتدون ،
أيام كانوا يحكمون ،
سبقوا إلى حمل السلاح .
حتى الصغـــار ! !
يأبون إلا يشركوا شرف الكفاح .

ومدافع الميدان تقذف باللهيب
حلم رهيب ،
الأرض ، والأطلال ، والأعطاف ، فى كل البطاح ..
قد لفها شفق ويكسوها دخان .
وأصابع الشجعان ،
تدمى .. ولا زالت على طرف الزناد
تحمى البلاد .
والطائرات تئز فى جوف السماء
والرعب يجتاح المدينة والفضاء
ولنا عزيمة ! !

*

لا .. لن تعود الطائرات

لا . . لن تعود إلى قواعدها سليمة

فإرادة الأبطال تخلق ما تشاء المعجزات

ولسوف تكتب بور سعيد

لمصر تاريخا مجيد،

تاريخ شعب مقتدر

قد شاء يحي مثلما تحي الشعوب وينتصر .

*

شهيد

قـــال مـــات

لم يـكن يذرف دمعة ! !

فله فى الغيب سبعة

أشربوا هذا المصير .

حاربوا فى الشام . .
فى ليبيـــا . .
وفى أرض القنـــاة ،
وانتصـــر
منهم كثير ،
لم يكونوا يرهبون الموت فى النزع الأخير .
علمتهم أمهم معنى الحياة
فهى مثلى لم تزل ،
ـ هكذا قال البطل ـ
لم تزل تؤمن بالفجر الجديد .
فجر أحرار تواصوا بالدماء
فلهـــا عزم شديد . .

عـزم إنسان يريد ،
ويضحى بالفـــداء ،
وله فى الحق صوت يرتهب
ثـار فيها دم فرعون وأمجاد العرب
حين صاحت ، يوم نادت : لا تعد
لا تعود . .
عزمك الخائر فى تلك القيود
دنس الأرض بأوهام الطغاة
فمشى العار يغنى فى الحياة
أغنيات عزفها لحن بليد
أغنيات عزفها لحن قذر
فانطلق للثأر واقتل وانتصر

وانتقم للعالم الحر الذى يرعى السلام
من دعاة الهمجية
واستبح دمع الطغام
دمع تجار الحروب
دمع أعـــداء الشعوب
دمع قوم أعوزتهم نسمات المدنية
فأثاروا حرب غـــدر بربربة
ليذلوا الكبرياء . .
كبريائى ،
كبرياء الأب والأخت التى لن تستذل
فوق أرض الشرفاء ،
فوق أرض شعبها شعب بطل .

لم يعد فى العالم الحر مكان للتتر
لشعوب قد أباحت كل دم
واستخفت بالقيم
لم يعد فيه مكان للعلق
وشعوب تحترق ،
فانطلق واثأر وثر
أقدم وقاتل وانتقم ،
ولتكن بين الضحايا تحتضر
أو فعد بالنصر إنى أنتظر

*

ألبسته الدرع لما ودعته
ثم عادت ـ فى حنان ـ قبلته

قبلة العهد الأخير .

لم تكن تذرف دمعة

قلبهـــا فى الخلد سبعة

أشربوا هذا المصير .

*

انتفاضات الشعوب

العائدون من القتال

يتحدثون عن القتال ..

فى بور سعيد ،

وعن الكفاح

فى ذلك البلد العنيد .

ويصورون خطى الرجال

وجميعهم حملوا السلاح

كالرعب فى حلق الحديد ،

تنساب فى عرض البطاح

*

وغياهب الميدان تقذف بالشرر

وبكل نافذة القضـــاء

وشواهق تندك فى لمح البصر

تستودع الله البقـــاء ،

والصبح مغـبر كثيف

تعلوه أعمـدة الدخان

كالأذرع الشوهاء فى الحلم المخيف
وعلى الرصيف
تنزو بقايا آدمى . .
علقا وتنزف بالدم ،

*

وبكل ناحية حريق
وصدى : بكاء أو عويل أو شهيق ،
يسترحم الله الكبير
ولا شفيق !!!

*

يوم عبوس قمطرير
عركته أبطال شداد

فالهول والثأر المريع ،
وهمو ، وحرب لاتطاق
جمعوا على الأعداء فى يوم التلاق ،
فدم العروبة لا يراق
إلا على مهج الضلوع

*

وتحدثت صحف الصباح
وصاح فى الحى المذيع :
لا يثلم الشرف الرفيع ،
وكتائب الأحرار فى كل البطاح
كالحصن فى الوطن المنيع

*

وغـــلا الجميـع

صمت رهيب ،

صمت قـذر ..

صمت تهـدده القـدر !!

فى كل بيت قلب أم ينتظر

ربطت عليه يد السماء ،

وغذاه فى صلف لبان الـكبرياء .

*

والناس من هول القضاء

شتى ويجمعهم على الحدب اللقاء

لا يستقر بهم قـرار ،

يتعاطفون وفى دماهم ألف ثار !!!

*

وجحافل الطغيان تزحف بالدمار ،

وبالخراب . .

وبالحراب ،

وبكل أمر لايباح

وتزحف بالجراح .

والبائعون نفوسهم بيع السماح

مثل الذباب ،

ينزو على شـرف البلاد .

وترف ألوية الغزاة

تحمى أقانيم الفساد .

*

ماينقم الأعداء إلا أننا شئنا الحياة

ونريد أن نحيا كما يحيا البشر ،

لاتجزعى أمـاه : تلك عماية الجشع الأشر
قد أسلمته إلى البوار . .
إلى غد لاينتصر ،
فكتائب الأحرار تستبق الحذر
لاتستلين لهم قناة .
ومدافع الأبطال فى كل اتجاه
ترمى عن الحق السليب .
وفى الوجوه
أمـل وإصرار عجيب !!
لا . . لن تذل لهم جباه
أو تستلين لهم قلوب
ليزعزعوا الإيمان فى الدنيا بأحلام الشعوب
ولسوف ينتصر الحفاة

ولسوف ينتصر الحفـــاة

الماضغون الصمت فى سوق الطغاة

ليبددوا هـذا الظلام ،

وترف فوق الأرض ألوية السلام

تخطو مع الأمل الجديد

هى قصة الطغيان والحرمان فى هذا الوجود .

الشعبُ العظيمُ

تطاول فوق ربوع الزمن

برغم المحن ،

وبالرغم من خارجىّ حقود

وآخر لازال ينمى القيود

ويعمى عن الشمس ملء السماء

ورأد الضحى ،

ويظلم أيامه بالبكاء

لماض تزمل بالموبقات

أكب على وجهه واعى ،

*

وغيرهما ثالث الأرذلين

قميد يشوه كل انتصار

تغنت به الجن فى الخافقين ،

ولو شاء شوه وجه النهار

بفلسفة الجاهل اللوذعى !

فـ « بكداش سوريا » كما يدعى

تنبأ قبلا بسوء المصير

وقاسم للشرق جد المسير

بقلب أبي ،

و «أردن» قد حالف الأجنبي

وألقى إليه زمام الأمور ،

كأن (جمـــالا) إلـه قدير

إذا قال للشيء كن فيكون ،

عليه يبدل شيخ العراق

وغير العراق ،

بمن ذا يريد

ويقطع دابر هذا الشقاق

ويأتي لمصر بخلق جديد .

جمال زعيم امجد الحياة
وحطم فى الشرق وهم العبيد
دعاة الضلال ..
دعاة الخور ،
دعاة الهزيمة بين الرجال ،
وحرك فى الرعب كف القدر
ليمحو مارقش الأدعياء ،
ويثبت ما يصنع الكبرياء
ويكتب تاريخنا بالدم
ويعلو على الواقع المؤلم ،
ويمنع أن يسترد الظلام
جيوش المغول

وخيـــل التـتر ،

وبغيا يدنس أرض الجدود

ويرمى حضارتها بالجمود

وتاريخهـــا ـ ظالما ـ بالتهم

*

أطل على الشعب ملء العيون

كعملاق أرض أبت أن تهون

وتزحمها تـــرّهات الظنون

وتفرخ فيها بقايا النزق .

أتـاح لقدرتها أن تعيـــش

وأن تنطلق ،

فثلّت عـــروش

على البغى قائمها قد ثوى ،
ومكن فيها لكل القوى
فجلجل كالرعد صوت مريع
بألفىْ شعار :
شعار المحبة ..
شعار الإخاء ..
شعار الرجولة بين الجميع ..
شعار السلام ،
شعار يذكر من ألف عام
بعزم الرجال
وخير الرجال ،
رجال العروبة بين الأنام

تحامتهم مزعجات الليـــال
بما أسلفوا من يد للبشر .
شعائر ضيعها المعتدون
وأنكرها بيننا الجاحدون ،
فعاشت لدينا كوشم قديم . .
كحـــلم يتـــيم . .
كبعض الصور ،
نمر عليها مرور الكرام
فلا تستهام ،
ولا تبتدر .
ونرثى لها إن الح الوفـاء
ونذرف بعض دموع الريـاء

وكان صباح

وكان مساء .

ولاح على البعد ركب الكفاح

وفيهم رجال ،

وفتيان صدق مضوا للمحال

فردوا إليها جلال الحياة

بعزم يزلزل شم الجبال ،

ويدفع أيامنا للغداة .

*

فاروق

قيل أمسات

بين خذ كأسا ومات !!!

وبقايا ذكريات

من ليال ضائعة ،

وشعوب جائعة !!

ذكريات طولها كم ألف عام

عاشها قبلا ألوف

من مماليك العراء

وحضارات الكهوف

منذ قال الناس : هذا ، فاعبدوه

ودعىّ قال : إنى . . . ، صدقوه

*

أغبياء !!

ساقهم طبع العبيد

للشقـــاء

والمحن ،

علموا الأجيال تعنو للزمن

وابتهالات الرجاء ،

*

علموها كيف تقتات الإحن ..

كيف تقتات الضلال .

وتغنى لانتصارات الخيال ،

وتداجى كل أطوار الطغاة .

فشى العار يغنى فى الحياة ..

أغنيات عزفها لحن بليد ! !

أغنيات عزفها لحن قذر ! !

واشرأب الدهر يقضى فى البشر

أقضيات البلهاء :

فضمير صيغ من ذوب الصفاء !

ودماء صنع سكان السماء !!

وشعور قيل عنها مرهفة !!!

لم تدنسها الليالى المعجفة

هذه حظ الملوك !!!!

*

قسمة ضيزى أباحت ما تشاء

من حياة مدنفة ،

وليال مترفة ،

وأمور تنضوى طى الخفاء

لفها الطيش بأوهام الظنون !!

فتراءت من فتوحات القرون

ترهات ..

قيل عنها من قبيل المعجزات !!!
هكذا حكم الغباء ،
حكم سمار الرياء ،
حكم قوم أشربوا هذا البلاء ،
فإذا النور ظلام !!
وإذا الخلف أمام !!
وإذا الحق ضلال !!!
وإذا الباطل نور ..!!!!
حكم قوم شوهوا التاريخ فى كل العصور !!!!!

قضية الشعر الحديث

- الرومانتيكية فى الأدب العربى الحديث
- الرومانتيكية فى الأدب الأوروبى
- الواقعية النقدية
- الواقعية الاشتراكية
- عود على بدء

قضية الشعر الحديث

الرومانتيكية فى الأدب العربى الحديث :

اتخذت الرومانتيكية سبيلها إلى أدبنا العربى فى مطلع هذا القرن ، توارد عليها شعراء المهاجر الامريكية وفى مصر شعراء «الديوان» فى وقت يكاد يكون واحدا إلى حد بعيد ، سبق إليها الاولون سبقا غير محسوب بما حاوله الريحانى وجبران ونعيمة فى البضعة عشر عاما الأولى من هذا القرن ، ذلك بأنهم لم يلبثوا أن لحق بهم فى مصر كل من المازنى وشكرى هذا «بضوء الفجر» فى عام ١٩٠٩ وذاك بالجزء

الأول من ديوانه عام ١٩١٣ ، وقفى على آثارهما العقاد بأول أعماله الشعرية فى عام ١٩١٦ .

وجاءت السنوات العشرينية والأعمال الأدبية تتلاحق هنا وهناك حتى إذا دخلنا فى الثلاثينيات كان هذا الشعر قد بلغ حداً بعيداً فى النضج والاستواء ، يقول صيدح: « وماحانت سنة ١٩٣٠ حتى تبنته آلهة الشعر ، وغنته الملائكة ألحان أبو ماضى ونسيب عريضة ورشيد أيوب فأخذته نشوة الزهو والطرب ، وراح إلى سجل التاريخ يكتب فيه اسمه وكنيته » (١)

ولقد واكب هذا الرعيل فى مصر « جماعة أبولو »

---

(١) أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ص ٤١

الذين التأم عقدهم بأول عدد من أعـداد مجلتهم فى سبتمبر من عام ١٩٣٢ ، فاستحصدت هذه الـنزعة على أيدى شبـانهم من أمثال أبو شادى والشابى والصيرفى وعلى محمود طه .

وكان الناس قدتسامعوا برواد هذا الشعر هنـا وهناك فى مصر وفى أمريكا، واتخذ القديم منهم موقف التنقص والعداء فاصطنعوا لمـذهبهم الأصول وشرعوا له القواعـد . الشعراء المصريون فى كتاب «الديوان» الذى نسبوا إليه . والمهاجرون فى « الغـــربال » الذى كتبه ميخـــائيل نعيمة ، فجاء هذان الـكتابان فاتحة هذا العصر الجديد فى الأدب والنقد .

وكما اتفقت معالم التأليف الشعرى وتواكبت دواوينه ومؤلفاته فى مصر وأمريكا فقد اتفقت كذلك معالم هذا التأليف النقدى ، فجاء « الغربـال » « والديوان » لا يفصل بينهما غير

عام واحد ، هذا فى ١٩٢١ وذاك ١٩٢٣ .

ولا يقف الأمر بنا عند هذا الاتفاق الزمنى وإنما الدلالة المقصودة من وراء ذلك هى الاتفاق فى الذوق والتفكير الأدبى كليهما ، يقول العقاد فى تقديم « الغربال » وأى شىء أدل على قرابة الفكر وأبين عن عروقها الممتدة ، وأرحامها المؤلفة من كتاب تخطر معانيه وتصاغ عبارته فى «نيويورك» ثم تكتب مقدمته فى «أسوان» تحت سماء القارة الأفريقية...

وأكاد أقول إنه لو لم يكتب قلم «النعيمى» هذه الآراء التى تتمثل للقارىء فى هذه الصفحات لوجب أن أكتبها أنا ، فأما وقد كتبها وحمل عبثها فقد وجب على الأقل أن أكتب مقدمتها (١)

والعقـــاد من شعراء « الديوان » ومن أصحاب

---

(١) الغربال لميخائيل نعيمة ص ١٥

الفصول النقدية فيه كما هو معروف .

ويأتى هذا الاتفاق فى جملته شعرا ونقدا أو ذوقا وتفكيرا من وراء الصدور المشترك عن موارد التراث الرومانتيكى فى الآداب الاوروبية، وهو على مد اليد يومئذ لمن أراده من عامة المتأدبين فضلا عن خاصتهم ، فكان ذلك منبهة لهؤلاء وأولئك على تصحيح الاوضاع الادبية فى كثير .

وندخل الجامعة فى أواخر الاربعينيات وهذه النزعة غاية كل طالب ورجاء كل أديب ، يفوز أصحابها من حولنا بما ترصده الدولة من الجوائز الادبية، والمقتفون آثارهم ينبهون بيننا بهذا الادب والاساتذة يأخذوننا بطرف منه فى الدرس والبحث والتذوق والاستمتاع .

وأنت تخوض فى أدب هذه النزعة ونقدها فتغوص فى ملحمة طويلة من قضايا النفس ، وجوه الشبه بين فصولها أشد من وجوه الخلاف ، فكل شاعر قد رصد نفسه وحسه ووجدانه أو ماشئت من هذه المصطلحات لظواهر الكون أو مظاهر الطبيعة ، ثم يجوس بخياله فى إنسانها وحيوانها وطائرها وجمادها وسلوكها ، لايقيده فيها حس ظاهر ولا عرف شائع ولا عادة متبعة ولا تقليد موروث ولا تقويم متواتر ، وإنما هو الانطلاق بما فى النفس من ملكات الخيال والعاطفة أو طاقات الخلق والإبداع أو الريادة والاكتشاف.

لجميعهم ضيق بقيود الحياة برم بالمألوف من ظواهرها والمتبع فى نظمها ، تستوى فى ذلك عنده قيود السلطة وقواعد العرف وقوانين الدين أو الأخلاق، ولا سبيل إلى « الخلاص »

إلا بحطمها والثورة بها، فقضية الإنسان أو النفس الرومانتيكية هى قضية الحرية والانطلاق حتى تستطيع بما أوتيت من ملكات أن ترتاد المجهول وأن تقع على الحقيقة القابعة فى « الماوراء » على حد تعبير « بورا » .

ولقد تفاوتت أشواطهم فى هذه السبيل فهم موزعون على الطريق من أقصاه إلى أقصاه ، يختلفون فى تصوير الحقيقة العليا وإنما يجمعهم الإيمان بها ربا لأشواق الروح وهيام النفس بالمجهول ، ويؤمنون بالعاطفة والخيال سبيلا إلى هذا العالم الذى يمسح عنهم هموم الحيـــاة الواقعة وسخافتها الجارية فى نظمها وناسها وما يكون من النظم والناس .

ذلك بأنهم آمنوا بالحياة الدنيا سجنا قبيحا ، وبالعيش

فيه رحلة اضطرار نكب بها الإنسان فى غير حكمة ظاهرة فهو أبدا ملطخ بوعثائها لاينفض عنه غبارها إلا عالم الخيال أو الروح أو النفس بما فيه من حق صريح وخير محض وجمال خالص .

وأسماء الدواوين أصح فى الدلالة على أطراف هذه النزعة العاطفية والتطوح وراء الخيال أو الرؤى والأحلام «كالملاح التائه» لعلى محمود طه و «الزورق الحالم» لمختار الوكيل و «الألحان الضائعة» للصيرفى «وأطياف الربيع» لأبو شادى و «من وراء الغمام» لناجى و «الشاطىء المجهول» لسيد قطب و «أحلام النخيل» لعتيق .

وتفصيل هذا الإجمال مبثوث فى دواوينهم تقع عليه فى

القصيدة هنا والقصيدة هناك ، يقول الشابي :

لاموا شبوب عواطفي وتخيلي .·. وتدفقي بالشعر ملء شعوري
وأكاد أوقن أن من هو لائمي .·. إما ضرير أو شبيه ضرير
إنا بنكون كله شعر بلا .·. حصر ، وكم من عاجز مغرور

وأنت تقع على هذه «العاطفية» أصلا أول من أصول هذه النزعة عند رائدهم الأول عبد الرحمن شكرى عندما صاح فى صدر أول دواوينه :

يا طـــائر الفـــردو .·. س ، إن الشعر وجدان

فإذا ما ألقينا أنفسنا بعد ذلك فى خضم هـذه الآداب رأينا ما أسلفنا من النزوع إلى العـوالم المجهولة والتشوف إلى مافيها من أسرار الغيب المحجب ، يقول الصيرفى :

قد سبحنا بالفكر عندك يا .·. رب، فتاهت أرواحنا فى سمائك
وعرفنا من الخيال معانيـ .·. ـه ، وغابت عنا معانى جلائك
ليت هذى الجسوم كانت صفاه .·. مستمدا جلاله من صفائك
لنعمنا مع الخلود بسر .·. دينوى وصلته بسمائك (1)

وهذا التشوف إلى الانطلاق من كل قيد جمعهم على صعيد واحد من التشبث بعالم المثل ، والفناء فيه هذا الفناء الصوفى الذى نراه عند الشابى :

ياصميم الحياة كم أنا فى الدنـ .·. ـيا غريب أشقى بغربة نفسى
بين قوم لا يفهمون أناشـ .·. ـيد فؤادى ، ولامعانى بؤسى
فى وجود مكبل بقيود .·. تائه فى ظلام شك ونحس
سأم هذه الحياة معاد .·. وصباح يكر فى إثر ليل

(1) الألحان الضائعة ص ٢٩

ليتنى لم أفد إلى هذه الدنـ .·. ـيا، ولم تسبح الكواكب حولى
ليتنى لم يعانق الفجر أحلا .·. مى ، ولم يلثم الضيـاء جفونى
ليتنى لم أزل كما كنت ضوءا .·. شائعا فى الوجود غير سجين

ولقد أورثهم هـذا الشعور هذه الغربة النفسية التى يلتقى فيها الشابى مع إيليـا أبو ماضى ساعيا إلى القفر هاربا من الحياة :

سئمت نفسى الحياة مع النـ .·. ـاس وملت حتى من الأحباب
وتمشت فيهـا الملالة حتى .·. ضجرت من طعامهم والشراب*

ولا يختلف عنهما أبو شادى شغفا بالعزلة فهو يغبط النخلة فى تفردها ويرثى عجزه أن يعيش على سننها :

---

* الجداول لإيليا أبو ماضى ص ٤٨

فى عزلة مثلى أراك وإنما .·. لم تيأسى مثلى من الصحراء
ياليت لى صبرا كصبرك أو منى .·. كمناك ، أو علما بسر هناء

ومرد ذلك السأم والملل ، إلى الضيق الشديد بالحياة فهم معها فى صراع أبدى ، لايصبرون عليها ولا يرغبون فيها وحسبهم ماهم فيه من الرؤى والأحلام يصنعها لهم الخيال ، فإذا أزعجهم عنها واقع الحياة ندبوا فيه الكزازة وخلق الجفاء ، يقول ناجى :

وانتبهنا بعد مازال الرحيق .·. وأفقنا ليت أنا لانفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى .·. وتولى الليل ، والليل رفيق
فإذا النور نذير طالع .·. وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعهدها .·. وإذا الأحباب كل فى طريق

وهؤلاء فى مقدمات دواوينهم والنقاد فيما كتبوه عنهم لم يألوا جهدا فى الحديث عن هذه الخصائص والمكابرة بها ، يقول الصيرفى : « آمال وآلام ، هما العنصران اللذان سيطرا على حياتى » ، وفيه يقول منـــدور : « ومثل تلك الحالة النفسيــة الحزينـــة المنطوية كان من الطبيعى أن ترهف من إحساس الشاعر وتأمله وتفكيره على السواء . . .

أما التيار الرومانسى فيتضح فى قصائده العديدة التى يشكو فيها من الحياة والأحياء ، ومن ذبول الأمل واستحصاد الألم فى نفسه » (1)

---

(1) الشعر المصرى بعد شوقى لمندور ج2 ص 119

ويأتى على محمود طه فيهدى ديوانه « إلى أولئك الذين يستهويهم الحنين إلى المجهول ، إلى التائهين فى بحر الحياة ، إلى رواد الشاطىء المهجور »[1]

ويكتب عنه الزيات بعد وفاته فيعجب من ضيقـــه بالناس وبالحياة ويقص علينا شكواه من « مرض الاغتراب والشوق الدائم إلى القريب المجهول والوطن النازح »[2]

ولقد آمن كل أولئك بجدوى هذه النزعة ، واعتبروها رجوعا بالشعر إلى جوهره وحاق معناه ، لا يأبه إلا بقضايا النفس والوجود ، أو على حد تعبير ميخائيل نعيمة « بحاجاتنا

---

(١) مقدمة الملاح التائه

(٢) وحى الرسالة للزيات جـ ٣ ص ١٩٣

الروحية ، والوفاء بمطالبها (١)

وعلى هـذا الأساس ثار العقـاد وطه حسين والمـازنى ونعيمة ومن إليهم من أنصار هذه النزعة بشوقى وحافظ ولم يستثن فريق منهم غير « مطران » لأنه أدخل من صاحبيه فى خصائص الرومانتيكية ، بدعة العصر على ذلك العهد أو أحدوثة الجيـل .

إلا أن ظروف الحيـاة المصـرية وما كانت تضطرم به يومئذ من الثورة النفسية على الظلم والاستعمار قد وقعت على بغيتها الفنية فيما ترامى إليها من أصداء « المـذاهب الواقعية » فاحتدم الخلاف بين النقاد والأدباء حول «الرومانتيكية» فهم

(١) الغربال لنعيمة ص ٥٩

بين مادح لايزال على مدحه وقادح يسخر من هذا الجديد ويدعو لما هو أجد .

أما المادحون فهم لايزالون عند جدوى هذه النزعة فى تخليص الأدب من التفاهة أو إن شئت فن « المعانى الواضحة التى تستدعيها اللمحة الخاطفة أو النظرة الطائرة » كما يقول الشابى ،[1] وهذا هو عين الوقوف بالشعر عند « القشور والطلاء » دون الغوص إلى « الجوهر واللباب » كما هو عند العقاد ونعيمه [2]

وهذا الغوص إلى الجوهر واللباب هو الغوص إلى « أعماق الحياة والموت والوجود والعدم ، وما فى خفايا ذلك

---

(١) مقدمة ديوان الينبوع

(٢) الديوان للعقاد والمازنى، والغربال لنعيمه ص ١٢١

العالم المجهول » [1] أو هو « نشوة الضـــلال فى المجهول، وطرب العطو إلى ماوراء ظواهر الكون من آماد » [2] أو هو انجذاب أبدى لمعانقة الكون بأسره ، أو الذات الروحية تتمدد حتى تلامس أطرافها الذات العالمية » [3] أو ماشئت من أمثال هذه المصطلحات والتعبيرات .

وهـذه الأغوار البعيـدة أو العوالم المجهولة لاتعنى عند القـــادحين غيرالهرب من المجتمع أومن واقع الحياة، وتلك طفولة لاطاقـة لها بالصـــراع ، تفر بأصحـابها والمتلبسين

---

(١) مقدمة ديوان الينبوع

(٢) وسائل النقد الدكتور رمزى مفتاح ص ٢٠

(٣) الغربال لنعيمة ص ٦٣

بهـــا إلى هذه العوالم التى أبلـغ ماتوصف به أنهـــا فراغ أثيرى (airy nothing) .

وأدى هـذا التشكك والاختلاف إلى أولى قضايا هذه النزعة أو أولى أزماتهـا ، وما زال القادحون بأصحـابها حتى أخذوهم بكل مزية كانوا يكابرون بها ، فأخذوهم بالانعزالية ، والفردية والعاطفية والخيالية واعتدوا ذلك جميعـه من سيء الحضارة البرجوازية ومثالب النزعات الليبرالية أو التحررية التى ترامت إلى مصر بكل مافيها من نظم وفلسفات .

ويتقاضانا جلاء هذه القضية أو تشخيص هـذه الأزمة أن نعرض للرومانتيكية الأوروبية ذاتهـــا وأن نقف على ما داخلها من نظر فلسفى وما أحاط بهـا من ظروف تاريخية وحضارية على وجه الخصوص ، ذلك بأنهم أخـــذوا عنها

مادتهم ، واصطنعوا خصائصها فى الشعر ومذاهبها فى النقـــد حتى إنهم تراموا فيما بينهم بالسرق منهـا والسطو عليهـا دون أن يدفعوا هـذه التهمة بحجـة راجحة . (١)

الرومانتيكية فى الأدب الأوروبى: Romanticism

والذين يعتمدون الخصائص الفنيـة وحدها فى التفريق بين الكلاسيكية والرومانتيكية يقفون من جوهر الخلاف على مسافة لايعدونها ، فالفـارق بينهما هو الفرق بين عهـــدين متدابرين فى كل وجوه الفكر والحيـــاة ، أو هو الفرق بين حضارتين أو فلسفتين يلتقيان التقـاء التعـاقب بما يـكون بين المتعـــاقبين من وجوه الاختلاف والمفـــارقة قبل المشابهة

---

(١) مقدمة أزهار الخريف لشكرى ومقدمة ديوان المازنى ورسائل النقد لرمزى مفتاح

والاتصال ، وهذا ماسوغ « لبول آزار » (P.H.) أن يتحول فى هذ االتعاقب والاختلاف «إنسان العقل وإنسان العاطفة، هاهما نموذجان بشريان يتعاقبان ، أحدهما يحل والآخر يرحل » (١)

وهذا الاختلاف الذى أجمله « بول آزار » فى العقل والعاطفة أساس من أسس الخلاف الدائر حول طبيعة المعرفة أو « الابستمولوجيا » (Epistomology) .

فلقد آمن القرن الثامن عشر بما ورثه من بواكير العلم والتجربة إيمانا لايتزعزع بالعقل وجدواه فى الكشف عن الحقيقة ، فنفوا بذلك عن الحياة ومظاهر الكون ماكان يتكنفها من الغموض الذى حاق بها فى العصور الوسطى ، فالطبيعة ووقائع الحياة بطلت فيهما الحاجة إلى تدبير الآلهة

---

(١) الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر حـ ٢ ص ٩٣

أو الجن أو الملائكة وإنما هو تصريف القوانين الكامنة فيها تعمل عملها غير مأذونة صنيع قوانين الضوء والجاذبية التى اكتشفها « جاليليو ونيوتن » .

ولا حيلة فى هذه القوانين فإرادتها غالبة ومنطقها غير مدفوع فهى عند المؤمنين إرادة الله بمعنى ، أو هى من خلقه أراد لهـا أزلا أن تطرد دون دافع أو رقيب ، فالله - عندهم - « يخلق ولا يتدخل » كما يقول « بيكر » (١) ، وأجدى على الإنسان أن يكشف عن هذه القوانين ليقتدى بها وينزل على حكمها ، قضت بذلك سنة الطبيعة أو حكم العقل ومنطق الاستنارة (enlightenment) .

وهكذا وقفت الطبيعة موقف الأستاذ، تلهم ولا تستلهم،

---

(١) المدينة الفاضلة ص ١١٢

وتعلم ولا تتعلم ، وأصبح العقـل هو الموكل باستخراج سرها والـكشف عن قوانينهـا ، وهى على أستاذيتهـــا لاتتأبى على طالب ، وتعطى ذات نفسها لـكل متدبر ، لا تكلفه غير النظر المعتاد أو « الملـكات الطبيعيـة » كما يقول « لوك » ، فضاقت بذلك مسافة الخلاف بين العقــــل والطبيعـة وجـرى عرف العصر بين الفلاسفة والمفـكرين بكل ماهو «طبيعى معقول» ، وبكل ماهو «معقول طبيعى» ، وأصبحت الطبيعة والعقل وجهان لعملة واحدة ، وأصبح القرن الثامن عشر عصر العقل والطبيعة .

وحسبنا « جـون لوك » شاهدا يجزىء عن غـيره لأنه زعيم فلاسفة القرن غير منازع ، طبع الفـكر بطابعه قرنا أو يزيد من الزمان كما يقول مؤرخوه وعارفوه ، فأنت تقـــرأ ما كتبه عن العقل البشرى فتراه عـدوا لـكل معرفة سالفة أو

قبلية كما يقولون (a priori) فالإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء (Tabula Rosa) خلت من كل علم أو عرفان ، ثم تأتى التجربة فتخط عليها ماتشاء من ذلك ، يقول : « من المقرر عند البعض أن هناك أصولا فطرية فى العقل وأعنى بها بعض الأفكار الأولية والخصائص ، مطبوعة على عقل الإنسان قد تلقتها الروح عند خلقها الأول وجاءت بها إلى هذا العالم .

والقراء العدول حسبهم تسليما بزيف هذا الرأى أن أريهم الناس عارين عن كل ملكة إلا الملكات الطبيعية يصلون بها إلى مالديهم من المعرفـــة بلا حاجة إلى أى أفكار أولية وأنهم يستطيعون أن يبلغوا اليقـــين دون مثل هـذه الأفكار أو الأصول» (١).

---

(1) Locke: Human Understanding P. 95

يقترب «لوك» إذن من «دافيد هيوم» ، فى نفى الذاتية والإيمان بالعقل مرآة لايعكس إلا مايقع عليه من العالم الخارجى ، فأصول المعرفة ليست فطرية أو بديهية وإنما هى مكتسبة بالتجربة والخبرة .

وهنا تكمن جذور الخلاف الأكبر بين الرومانتيكيين وهؤلاء ، فالرومانتيكيون يأبون أن تبلغ النفس الإنسانية هذا الحد من السذاجة والخواء ، وأن تقف ملكاتها العاقلة من العالم الخارجى هذا الموقف المنفعل لا الفعال أو السلبى لا الإيجابى ، تأخذ ولا تعطى، وتهتدى ولاتهدى، وتتبع ولا ترود ، يقول (موريس بورا): «فمنذ قرن مضى والفلسفة الانجليزية قد سيطرت عليها نظريات «لوك» ، ولوك قد اصطنع لنفسه مذهبا فى الادراك العقلى يقف فيه العقل

موقفا سلبيا خالصا ، فما هو عنده إلا سجل الانطباعات التي تأتيه من الخارج أو على حد تعبيره « ماهو إلا نظار كسول ؛ أو متفرج كسلان يطل من فُرجته على العالم الخارجي ، وهذا المذهب يتفق مع عصر النظر العلمي الذي وجد في (نيوتن) صوته المسموع. » [1]

وهذا التفسير الآلي أو الميكانيكي الذي فسر الفلاسفة والعلماء به الكون لايذر غير النزر اليسير من الاعتداد بالنفس الإنسانية والسمو بمعتقداتها الفطريه التي لاتقل قوة عما عداها.

وهذا الإيمان بفاعلية الإنسان وجدوى ملكاته في معرفة الكون والنفاذ إلى حقائقه وأسراره هي الدافع

---

(1) Bowra: Romantic Imaginatin p.2

بالرومانتيكيين وعلى رأسهم (كولردج) أن ينقضوا فلسفة (لوك) ويرموه « بالضلال والهرطقه فى نظرته إلى الكون وطبيعة الوجود والإنسان »[1]. يقول (بورا) «ولقد شغلوا بما هو أبعد من تسفيه آرائه الخاصة فى الله والشعر، فكانوا أعداء مذهبه وجميع منواله الفكرى « system » الذى يظاهر هذه الآراء ويؤازرها »[2].

ولا يختلفون موقفا من (نيوتن) رأس هذه المدرسة العقلية أو المنطقية أو الآلية فى المعرفة وفى تفسير الكون، ذلك بأنهم آمنوا بنظام علوى (Transcen-dental Order.) يحكم الكون، لا يطال للعقل إليه ولا يجدى فيه الجهد المنطقى، وإنما هو الاستبطان أو الرؤية

(١) المرجع السابق (٢) المرجع السابق

الداخليـــة « insight vision » ، فقضوا بذلك علـى ماأسلفنا من الجهد المعتاد أو « الملكات الطبيعية سبيلا ممهودة إلى الإدراك واستكناه خبـايا العـــالم ، وأصبح الوضوح (clarity) الذى أضفاه « ديـكارت » على حقائق الحيـــاة خرافة لايرضاها غيرالسذج وأحلاس الآلية الصماء أو السلبية الجوفاء ، فردوا على الـكون عمقـه وغموضه ، وعلى النفس الإنسانية قدراتها وملـكاتها ، يستغلق الـكون مايشاء وهى موكلة بفض المغـاليق وكشف الأسـرار ، وذلك هو عصب الرؤية الداخلية ، فلقد آمنوا بنظام علوى يقبع فيما وراء الـكون ، وبالعاطفة والخيال ملـكتين تجوس بهما النفس فى هذا العـالم المجهول ، يقول « بورا » « إن الرومانتيكيين فى نبذهم تفسير لوك ونيوتن للعالم المرئى قد استجابوا لنداء داخلى يستهدف

الكشف عن عالم الروح كشفا أبلغ وأتم ، ولقد آمن كل منهم على اختلاف مذاهبهم بنظام للأمور غير النظام المشاهد والمعروف ، وكان هذا النظام هو الهدف من وراء بحثهم العاطفى ، فكانوا يريدون أن ينفذوا إلى الحقيقة الأبدية وأن يكتشفوا غوامضها فيخلصوا بذلك إلى الفهم الأوضح والإدراك الأصح للحياة وما تنطوى عليه من معنى وقدر وقيمة »[1] .

وأنت تستطيع أن تقع فى شعرهم على أطراف مذهبهم فى أسرار الكون وفى الإنسان يصوغ بملكاته هذا النظام العلوى الذى يراه بعين الخيال الحق ، وهو أمر شائع مشهور بين طلاب الآداب الأوروربية والعربية على السواء .

فشللى فى أنشودته إلى الجمال يؤمن بأن هناك قوة خفية

---

(1) Bowra: Romantic Jmagination p. 9.

تسرى فى العالم مثل « نسائم الربيع أو شعاع القمر » ، تلم بكل قلب إلا أنها ضنينة على الناس بسرها حتى لاتلبث أن تفر وتختفى تاركة وراءها الدموع والشقاء فى هذا العالم التعيس»[1]

والشاعر عنده هو الموكل « بخلق عالم آخر مما حوله من الواقع يكون أنبض منه بالحياة ، وأوفر حظا فى الجمال وأبقى على محك الخلود »[2].

ويلتقى «كيتس» معه فى الشغف بهذه الأسرار والكشف عن مظان الجمال الأبدى يقول :

---

(1) Poems of shelley 348 .

(٢) راجع بروموثيوس طليقا ، الروح الرابعة ص ١١٥ من المرجع السابق .

«ولتــــدع الخيال المجنح إذن يهيم
خلال الفكر الممتد إلى ما وراءه
وافتح سجن العقل على مصراعيه
فيندفع الخيال ويحلق نحو السحاب
فـــله خـــدم يلفون بـه
وسوف يأتيك رغم الصقيـــع
بالجمال الذى فقدته على الأرض» (١)

فآفة الحياة عنده أن الجمـــال أفسدته الألفة واستنفده التداول، كالفقاعة لاتصبر على اللمس، فدع الخيال إذن يأتك «بأمرأة يعشق فكرك طيفها وتستقر جوانحك عليه» (٢)

وهكذا تتسع شقة الخلاف بين سر هذا الكون أو الطبيعة وبين الكون أو طبيعة القرن الثامن عشر، كما تتسع بين

(١، ٢) مملكة الخيال ترجمة المسيرى فى كتابه الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى ص ٢٨٨

الخيال هنا والخيال هناك ، ولا تختلف العاطفة عنهما موقفاً .

وبجمل الفرق بين الطبيعتين هو الفرق بين طبيعة «نيوتن» وطبيعة «فكتور هوجو» (V. H.)، هذا يرى فيها نظما علوية أو نبوة خفية تبسط لها ذات نفسك فتفضى إليك بجلالها وروعتها شأنها مع «إميل» على يديه [1] ، وذاك يراها جملة من القوانين المنطقية التى تطرد اطرادا آليا على غرار قانون الجاذبية الأكبر .

وأما الاختلاف بين الخيال الرومانتيكى والخيال عند هؤلاء الفلاسفة العقليين ، فواضح فيما يناط به هنا وما يناط به هناك ، فالعقليون يعتدونه مركبا للشطط إذا أملى له ، فهو دائما مكبوح بزمام العقل وقصاراه فى «المعرفة» أن يجمع

---

(١) إميل لفكتور هوجو ترجمة زعيتر

الشتيت ويستحضر الغائب ، فهو «واسطة» العقل إلى الادراك أو «أداته» إلى الفهم والمعرفة .

وهذا العمل هو عمل الخيال الأولى أو الابتدائى (Primary) عند الرومانتيكيين ، أما الخيال الذى يناط به الشعر عندهم فشىء آخر يختلف عنه وظيفة وعملا ، أو على حد تعبير (كولردج) «يختلف عنه فى الدرجة وفى طريقة العمل أو النشاط ، فهذا يذيب ويحطم كى يبنى ويخلق من جديد ، فإذا أعجزه الخلق فالوحدة الجامعة لأطراف الرؤية أو العمل الأدبى والسمو بالواقع إلى المثالية الخالصة» (١)

وهذه الوحدة الجامعة أو الحيوية المبثوثة أو ملكة الخلق والإبداع ، لاتبلغ غايتها بغير التعاطف أو ملكة الحس

---

(١) كولردج لمصطفى بدوى ص ١٠٦ نقلا عن (Litt. Biog)

والشعور ، فالخيال بلا عاطفة ملكة عمياء ورائد أصم ، فهى مفتاحه إلى الرؤى والأحلام أو هى روح « الشعر » كما يقول شللى وغير شللى من أئمة هذه النزعة وأتباعها (١)

والعاطفة عند هؤلاء الشعراء لاتعنى ماتعنيه عند علماء النفس ولامايجرى به العرف الشائع فى كلام الناس وإنما تعنى عندهم ماشئت من « التلقائية واللاوعى ومنبع الأحداث والخلق الفنى وغيرها من الخصائص الإنسانية اللاعقلية على غرار دفعة الحياة والحدس والملكة الصوفية » كما جاء فى شپلى (٢)

ولا أظنه يعنى المشابهة المطلقة بين هذه المصطلحات وإنما هى السمة الجامعة بينها وهى العاطفية أو الجانب اللاعقلى

---

(١) تطور الفكر الأوروبى لبول آزار حـ ٢ ص ١٠٦

(2) Shipley: Dict. of W. Lit. 494

أو « الأقل حظا من العقل فى الطبيعة البشرية » على حد تعبير راندال (1) .

وهذا (الجانب الغامض) من الخبرة الإنسانية لا اتفاق عليه ولا ضابط له ، على غير الشأن فى (الجانب العقلى) منها ، و (النظام العلوى) المستهدف ليس فى وضوح (القوانين الطبيعية) التى ثاروا بها ، و (الحقائق الأبديه العليا) لا تعلو إلى مرتبة (الحقائق العلمية) فى الضوابط والمعايير ، ففتح عليهم ذلك أبواب الخـلاف . وأصبح الشاعر رهنا بما يقطعه من أشواط إلى هذه الغايات المبهمـة ، وبمـا يعانيه هو نفسه وتنفعل به مشـــاعره ويقـع عليه إحساسه وبصيرته ، وهكذا فرضت « الأنا » أو « الذات » نفسهـا قانونا للأدب ومعيارا من معايير الفذاذة

(1) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٤٠٢

والامتياز، وهذا ما اصطنعه العقاد معيارا باسم «الطبيعة الفنية» أو «شعر الشخصية» وضع به شوقيا ورفع ابن الرومى[1].

ومعيار «الذاتية» هذا فى الأدب قد أملى له طابع «الفردية» (individualism) الذى طبع الحضارة البرجوازية بطابعه القوى فى القرن الثامن عشر على وجه الخصوص، وحسبنا «العقد الاجتماعى» فلسفة انتهى إليها هذا القرن تقف بالفرد إزاء الدولة كلها وندا لكل سلطان أو جبروت، أو على حد تعبير (سبنسر) فيما بعد ضد الدولة أو فى مواجهتها (versus).

وجاءت المواثيق العالمية والدساتير الليبرالية لتتربع بالفرد على قمة النظم السياسية والاقتصادية وتكفلت حقوقه

---

(١) راجع كتاب الديوان وشعراء مصر وبيئاتهم وابن الرومى وكلها للعقاد

« الطبيعية » فى التحرر والانفراد بالقداسة التى لايعلو عليها قانون ، فالمجتمع السياسى - عندهم - لاحق على وجود الفرد ، قد انعقد برغبته أو إرادته وتعاقده ، فهو من خلقه وإنشائه ولا يضار والد بولده ، سنة الطبيعة وحكم الفطرة أو العقل ، فجاء الفرد على أيديهم سيد المجتمع بلا منازع ، يسيره ولا يسير به ، ويملكه ولا يتملك به .

وفى الجانب الآخر يقف به غلاة التحرر والانطلاق سيدا للكون بمعناه الفلسفى والاجتماعى ، فلقد ارتحل الله عندهم عن هذا العالم أو مات عنه على حد تعبير « نيتشه »(1) ولقد خلفه الانسان عليه ، فداخله الكبرياء وهانت عليه القيود المتوارثة والقيم الموروثة ، فثار بالزهادة المسيحية والتقشف الدينى

---

1) Nietzsche: Thus spoke Zara. p.4

واصطنع «اللذة» قانونا مشروعا «ومبدءا طبيعيا» تدور عليه الحياة والأحياء، يقول «فولتير» (Voltaire): «وهل عقلك المستنير يستطيع أن يؤمن بالتاريخ الوهمى للعهدين القديم والجديد، وبالأحلام المقدسة لأولئك المتنسكين المجانين الذين يتركون اللـذة الحقيقية من أجل مجـد زائف، لأن اللذة هى موضوع جميع الكائنات العاقلة وواجبها وغايتها » [1]

ذلك هو منطق التحـرر وتلك هى أغوار الليبرالية، انتهت بهم إلى الاستهتار بكل عرف متبع، وقيمة موروثة فى الأخلاق والسلوك، فهانت على « بيرون » روابط الأخوة، فكانت بينه وبين أخته ماخطه هو بيده من دنس يعف عنه الباحثون[2]، وكان من «جان جاك روسو» (J. J. R.) ماكان مما

(١) تطور الفكر الأوروبى لبول آزار نقلا عن رسالة انو إلي أوراني جـ ١ ص٦٣ (٢) بيروت لأميفة السعيد

يقف له الشعر من الجرأة فى التبذل والانحلال ، وقس عليهما « رابليه » وغير رابليه من أولئك النفر الذين تحرروا من كل قيد فى الأدب والحياة ، يقول (هوجو) : « إن الرومانتيكية كثيرا مايخطىء الناس فى تعريفها ، وينبغى على الجميع أن يأخذها على أنها الليبرالية فى الأدب ، وهذا هو التعريف الحقيقى لها ، وأعنى بذلك الحرية فى الفن والحرية فى المجتمع ، وهذان الأمران ينبغى أن تستهدفهما قوى العقل والمنطق ، فها نحن قد خرجنا من نطاق المجتمع القديم ، فكيف لانخرج على نطاق الشعر القديم »[1] .

إلا أن الناس لم يلبثوا أن أخذوهم بهذا التحرر والخروج على مألوف الفكر والشعور ، « ذلك بأن المخاطر والشرور

(1) Picard: Le Romantisme Sociale, p. 26.

ذات الصبغة الجنسية - كما يقول « هاردنج » - كانت من أولى الملامح التى بدأت تقفز إلى الصدارة بعد أن كان العقل والمبادىء السليمة قد نبذاها إلى مكان بعيد »[1].

ولقد وقفت بهم هذه الجرأة موقف « البلهاء والأشرار » عند كبار معاصريهم من النقاد[2] ، وأسلمتهم إلى الصراع أو التطاحن مع المجتمع وقيمه ومعتقداته .

ولعل مثل هذا التناقض فيما بينهم وبين المجتمع هو الدافع بجبران إلى أن يتمسح بمسوح النبرة والجنون معا[3] تعاليا وسخرية قبل أن يتعالى الناس عليه ويسخرون هم منه ، وقد نزل أغلب هؤلاء الرومانتيكيين على حكم الأمرين معا .

---

(١) الرومانتيكية ... ترجمة المسيرى ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ١٧ (٣) المجنون والنبي لجبران

وسواء صح هذا الزعم أم لم يصح فإن الوجه الأول من أزمة هذا الشعر جاءها من الغلو فى التحرر والشطط فى ازدراء الأوضاع والتقاليد الجنسية وغير الجنسية من أمور الدين ومواضعات الحياة ، مما أدى ببعضهم فوق ذلك إلى الهرطقة والإلحاد فى آخر الأمر ، جاء فى شپلى : «ومن المنطق أن التحررية أو الليبرالية السياسية تتصل بالرومانتيكية فى الأدب وتتجاوب معها ، وهذا هو الواقع بالفعل ، فلقد أدت الحرية الفردية ببعض الرومانتيكيين مثل شللى إلى الإلحاد ، وبآخرين مثل بودلير إلى الهرطقة ، ومع ذلك ظل آخرون منهم كاثوليكيين صالحين بل أنقياء أتقياء» (١).

الواقعية : (Realism)

وجاءت الواقعية فلم تقف عند مآخذ الجنس والهرطقة

أو الإلحاد وإنما كانت فى كثير من أمرها انتفاضا على التحرر من قيود الواقع والانطلاق الرومانتيكى فى مطاوى المجهول وعوالم الخيال ، وسوغ لها فى النفوس يومئذ ماداخل الناس من السأم، وما ملوه من الدوران المكرور حول الذات، وقد خلف على هذا الأدب خلفٌ قصُروا عن بلوغ شأو أسلافهم من أمثال كولردج وشللى ووردزورث، فبشمت هذه المثالب على أيديهم ، وكره الناس للأدب أن يدور فى هذا الفراغ الاثيرى (airy nothing) أو أن يكون وسيلة لمثل هذه الغايات المبهمة الغامضة أو العوالم الذاتية الخاصة التى تضيق فيها مسافة الخلف بين الأحلام السائغة المشروعة وبين الأوهام والخرافات ، فنادى « تيوفيل جوتييه » بالفن للفن تخليصا له

(1) Shipley : Dict. of. W. Lit. p. 494

من هـذا الموقف المجحف ليقف به غاية لا وسيلة ، فقفزت « التعبيرية » (expressionism) على يديه إلى صدر القيم ، وأصبح «الأدب تعبيرا» (art is expression) هو التعريف المستحب ، لأنه يؤكد الأدب « ظاهرة جمالية » فى ذاته تبطل معه كل غاية أخرى قد يُعتد به من أجلها كما ذهب إليه برادلى (١)

ولقد أفاد الواقعيون من هذه الدعوى وما ينبنى عليها من هذا التحرير أو التحرر الجديد من موروثات الرومانتيكيين ، جاء فى « هارفى » « لقـد أصبح الفن للفن صيحة الجماهير من أمثال جوتيـه و بودلير و تيودوردى بانفيل و فلوبـير فى صراعهم من أجل حرية الفن » (٢) .

---

(1) Bradley: Oxf. Lectures on Poetry, p. 4

(2) Harvey: Oxf. Comp. to Fr. Lit p. 31

إلا أن الواقعيين لم يقفوا بالأدب موقف البرناسيين (parnassians) وإنما جازوا به وصف الطبيعة إلى وصف المجتمع ، وعدلوا معهم عن الذاتية إلى الموضوعية ، إلا أنها موضوعية الشاخص إلى وقائع الحياة المترصد لمجريات الأمور وسلوك الأحياء ، فكانوا بذلك ثورة على الثورة الرومانتيكية والفن للفن معا .

وكانت حجتهم الراجحة فى موازين النقد والفلسفة والفكر على ذلك العهد هى «الصدق» ليس غير، جاء فى هارفى :
« لقد اعتمد الواقعيون شعار الصدق فى الفن (sincérité) بدلا من شعار الحرية (liberté) الذى اعتمده الرومانتيكيون» (١) .

---

(١) المرجع السابق

ولايعنى الواقعيون بالصدق ذلك (الصـــدق الفـنى) الذى يصدق بالمطابقة بين الأدب والانفعال القائم فى النفس، فالانفعال يثيره الواقع كما يثيره الأمر المتخيـل والموهوم على السواء ، وإنمـا يقصرونه على تصوير الواقـع الاجتماعى أو واقع الحياة والأحيـاء ، وهـذا القصر ينتهى بهم إلى الواقـع والصـدق وصفين لقيمـة واحدة أو وجهين لمعيـار واحد ، فأصدق الصدق هو الواقع المرصود بحذافيره فحسب، وهذا هو الفارق بينـه وبين واقـع المثـــاليين أو الفلاسفة العقليين ، فهـؤلاء يؤمنون بالواقع واقعا بما هو موجود به فى الذهن .

ومؤدى هذا القول أن الحقيقة قائمة فى الذهن لخصائص مركوزة فيه ، فهى معرفة قبلية (a priori) لاتستمد صدقها من الواقع وإنمـا الواقع هو الذى يستمده منهـا ، وذلك هو

صلب الكوجيتو (cogito) الديكارتى ، ينطلق من الفكر إلى الواقع ولا يعود إليه بشىء (١) .

ولا يقال ذلك هو صلب الأفلاطونية لأن الواقع عند أفلاطون ظل للحقائق القابعة فى عالم المثل ، يقع عليها الإنسان بالتذكر (Reminiscence) لا بالتعقل ، إلا أن هذه الفوارق تبطل فى حديث الأدب ولا تبطل معها مظاهر الاتفاق، فكلا المذهبين يغمط الواقع ولا يعتد به، وكلاهما أملى للكلاسيكية فى العدول عما هو كائن إلى ماينبغى أن يكون ، وهذا ماتأباه الواقعيه، فالواقعية أعدى أعداء هذا التمثيل الأعلى للحياة والأحياء (idealization) ، ولقد آزرتها الفلسفات

(١) نظرية المعرفة للشنيطى ص ٥٩ ، ورواد المثالية لعثمان أمين ص ٣١ ، وتاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ٦٢

أو المناهج التجريبية على ذلك العهد بما أوحت به من موضوعية المعطيات الحسية أو الأشياء الخارجية واستقلالها عن الإنسان، فاسترد بذلك الواقع العارى عن التزويق أو التزوير ماضيعه الميتافيزيقيون من جدواه فى المعرفة ، وماضيعه الكلاسيكيون والرومانتيكيون من سحره فى النفوس وروعته فى عالم الأدب والتذوق ، جاء فى شپلى : « وتنطبق الواقعية فى ميدان النقد الأدبى على تلك الأعمال الأدبية التى هيئت على نمط أدخل فى تقليد الحيـــاة الملابسة أو الحالة أو الواقعة وتستمد مادتها من واقع العـالم ، فالكاتب الواقعى هو ذلك الذى يتخـذ له موقفا موضوعيا أو فوتوغرافيـا أو تقريريا أو موقفا غـير فنى (artless) فى تناول مادته ، وألا يقحم فى أدبه آراءه الذاتية ومشاعره الشخصية .

وهكذا يؤمن الفيلسوف والأديب كلاهما أنه من المستطاع أن يتخذ الإنسان موقفا موضوعيا خالصا فى سبيل الوصول إلى الحقيقة »[1].

ولقد أفضى الفكر الأوروبى إلى شيوع الفلسفة الوضعية والنزعة العلمية فى القرن التاسع عشر ، وأفضى هذا الإفضاء إلى تسويغ الواقعية الأدبية فى النفوس لأنها أصبحت زاد الأذواق العلمية التى تنفر من المبالغات الأدبية والتهويلات الشعرية إلى التحليل الواقعى أو التأويل المادى جاء فى هارفى : « الواقعية حركة فى القصة الفرنسية بلغت أوجهـــا فيما بين ١٨٥٠و١٨٦٥ ، ولقد عكست شغف العصر العلمى والوضعية التقدمية بالحقائق المادية كما عكست نفور الناس من الحماسة

(1) Shipley: Dict. of W. Lit. p. 470

الغامضة أو بمعنى آخر حماسة الرومانتيكيين للغموض »[1] .

وأنت تقرأ ما كتبه مؤرخو الآداب الفرنسية والانجليزية وكتاب دوائر المعارف الأدبية من أمثال كازاميان ولانسون وهارفى وشپلى وكاسلز فتقع على الروافد الفلسفية والعلمية التى وفدت من هيوم وكومت ومل وداروين وتين وسپنسر ومن إليهم من أعلام التجريبيه والوضعية والنفعية والتطورية والتاريخية والنفسية ، وكلها شاخص إلى الواقع الإنسانى وتحليله ، شاخص إلى القوانين العلمية التى تحكمه فى حركته التاريخية العامة والنفسية الخاصة .

ولقد أفضى بهم هذا الإتجاه إلى المبالغة فى نفى العناية الإلهية (Providence) ، واستحالت معهم الميتافزيقيا من جميع

(1) Harvey: Oxf. Comp. to Fr. Lit p. 549

الوجوه ، فأسلموا للقوانين العلمية أو متطلبات هـذه المرحـلة الوضعيـة خاتمـة مراحل التطور الفـكرى فى تـاريخ البشرية وأقصاها فى حياة الإنـسان، لأنها مرحلة الرشد العقلى،والمشيح عنها عائد لا محالة إلى أحضان الدين والميتافـيزيقيا أو مراحل البحث عن العلل الغائية والقوى المجـــردة مما لايجـدى مع القوانين العلمية المطردة العمل والتأثير .

وهكذا نجد أنفسنا فى أتون الحتمية الخـالصة إلى حـد كبير ، يقول الشنيطى نقلا عن روبنسون دكور : « فالوضعية والنزعة العلمية يتفقان معا على نقطة واحدة وهى أن كل مافى العلم سواء أكان علما نفسيا أو اجتماعيا أو طبيعيا فهو يخضع للحتمية على إطلاقها ، ولايمـكن من ثمة أن يتولد شيء مـا إلا بمقتضى قوانين عامة ثابتة » (١).

(١) نظرية المعرفة للشنيطى ص. ١٠٩

وهكذا نجد أنفسنا نغوص فى حتمية تين (Taine) وطبيعية (Naturalism) تلميذه زولا ، هذا يحمل أبطاله الأدبية على قوانين ذاك النقدية ، وكلاهما حيل على فلسفة العصر ونزعاته العلمية ، يقول كازاميان : « لقد واكب الاتجاه الوضعى العلمى القائم على أعمال أوجست كومت اتجاه شبيه به فى نظريات فلوبير وزولا الجمالية ، وهذا لاينبغى تفسيره بتأثير السابق على اللاحق مادام الاتجاهان كلاهما ضارب بجذوره فى هذه الأرض ضربا عميقا منفصلا بعضه عن بعض ، وإنما أصح التفسير أن القصاص وحتى الشعراء قد عكسوا نهج الفلاسفة وأخذوا منهم وحيهم العام إلى حد ما »[1] .

---

(1) Cazamian : Hist. of Eng. Lit. p. 371

والحيوان البشرى (La bete humaine)
لإميل زولا ، هو المثل المضروب على هذا الأثر أو النهج ،
وحسبنا هذا العنوان دليلا على موقفهم من
الإنسان وما أنزلوه عليه من حكم البيئة وضرورات الجسد
وغرائز الحيوان ، يقول مندور : « وهذا اتجاه قد أصبح له
فى الفلسفة وعلم النفس الحديثين أنصار عديدون ، وهم أولئك
الذين يقولون بأن حياة الإنسان الشعورية والعقلية ليست إلا
ظاهرة ثانوية أو ظاهرة طفيلية تسلقت على أصل الإنسان
العضوى ومن ثم فهى تابعة ومتأثرة بهذا الأصل العضوى » [1]

على أن هذه الحتمية أو هذا الاتجاه العلمى الصارم
ليس هو القاسم المشترك الأعظم بين الواقعيين ، وإنما هو

---

(١) الأدب ومذاهبه لمندور ص٩٨

آخر الشوط الذى يقف على أوله (فلوبير) بواقعيته التقريرية التى لاهم لهـا سوى مثالب المجتمع ورصد النفس الإنسانية كما هى فى سيئها إلى حـد كبير، يقول بليخـانوف : « إن أعمـال فلوبير قد انطبعت بطابع الوثائق التى تقـدم المادة الضرورية لـكل من تعنيه دراسة علم النفس الاجتماعى »[1].

وبين موضوعية (فلوبير) هذه وحتمية (زولا) تلك ، يقف فى تقديرنا غيرهما من أعلام الواقعية من أمثال بلزاك وبودلير وثاكرى وديكنز ،وكلهم قد رصد حسه وبسط ذات نفسه لمثالب المجتمع وأوضار السلوك البشرى .

وأنت تقـــرأ ما كتبه هؤلاء فى الكولنيل شـــابير (Le Colonel Chabert) ، وأزهـار الشـــر (Les

(١) الأدب بين المادية والمثالية لبليخانوف ص ٣٨

(Fleurs du Mal وسوق الأباطيل (Vanity Fair) ، وأوليفر توست (Oliver Twist) ، فترى الخسة والضعة والتعاسة والقسوة والنزوة وما إليها من كزازة الطبع وسوء الخلق، فالكونيل شابير على مجده الحربى ينكره الناس وينكره القضاء وتنكره زوجه التى تعيش على ميراثه الضخم مع غيره من عظماء باريس لينصرف آخر الأمر طى الخفاء يلعن الإنسانية كلها ويعلن على الملأ برمه وتقززه من الإنسانية جمعاء[1]

وديوان «أزهار الشر» قد يغنى عنه عنوانه بما يوحى به من متع الشر أو لذاذة الحرام ، وحسبك ما توارد عليه النقاد فى أمره من هذا الجانب الحسى الصارخ بوقائع الحياة وسلوك الإنسان ، ولا شك أن «الواقعية الحسية» تكون

---

(١) الكولنيل شابير ص ١٠٣

أبشع ما تكون في أمور الغـــزل ومسائل العشق التي
شذت في باريس يومئذ على الضوابط وقوانين الاجتماع ،
يقول طه حسين : « وبودلير في كل شعـــره حر جرىء
مجازف يتخذ أبشع الصور وأقبحها وأشدها تأثيرا في النفس
من هذه النواحي البشعة القبيحة » (١).

وأما (أوليفر) اللقيط فيخلص من قسوة الموكلين بالملاجىء
إلى حبال اليهودى العجوز فيسومه الخسف والهوان ، لا يرحم
غضاضته وطراوته وإنما هي المكاره يدفعه إليها في سبيـــل
دراهم معدودة ، وفي (الأرض) تمكن (ليز) زوجها من
أختها الصغيرة (فرانسواز) دون أن تأبه بما تفعل ، ولما تثور
بها أختها فتصفعها (ليز) صفعة المستنكر لهذا التطاول كأنما

(١) حافظ وشوقي لطه حسين، والمقال المعقود على أزهار الشر في ص ٦٠

جاءت أمرا طبيعيا لاغرابة فيه (١) على حد تصوير زولا .

وقس على ذلك ماعداه مما يطول به الوصف فى هذا الصدد من التسفل والحطة ، يقول محـــامى (شابير) وقد برم بكل هذا الجحود والنكران : «كم من الأشياء تعلمتها وخبرتها وأنا أزاول مهنتى ، عرفت أبا مات فقيرا محروما جائعا ملقى فى أحقر مكان بلا زاد ولا مـال ، ولقد لفظته ابنتـاه اللتان وهبهما مالا يزيد على الأربعين ألف جنيه ... ورأيت الامهات يأكلن أموال أبنائهن اليتامى ظلما وعدوانا ، ورأيت الأزواج يسرقون ثروات زوجاتهم ، وصادفت نساء يقتلن أزواجهن بسلاح الحب ... ثم يعشن فى هناء مع العشيق أو الخليل ، ورأيت أخريات ينشئن أبناءهن من الزوج الأول

(١) الأرض لزولا ص ١٢٢

على النزق والفساد لينعم أبناء الغرام بالثراء والجاه .

رأيت ياصديقى وما أكثر مارأيت ... رأيت من ذلك الكثير .. إنها الحياة » !!! [1] .

و « إنها الحياة » إجمـــال يغنى عن كل تفصيل ، لأنه يوحى بفلسفة هذه النزعة ويأتى على أطرافها ، فأنت تقع منه على ثلاث يفضى بعضها إلى بعض عند التحقيق ، أولها ضعة النفس الإنسانية بما ركب فيها من طباع الغدر وجبلت عليه من الخسة والدناءة والقحة ، وثانيها العفونة ومايدب فى المجتمع البرجوازى من الخلل والانحلال ، والإنسان آخر الأمر لاحول له ولاقوة ، تجرى الأمور لغاياتها وهو صابر عليها صبر المكره أو المتعجب أو الثائر الذى ينتهى جموحه إلى سكينة المضطر أو استسلام

(١) الكولونيل شابير ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

الذى لا حيلة له إزاء تصاريف القدر أو إرادة الحياة .

الواقعية الاشتراكية (Socialist Realism)

وتأتى الواقعية الاشتراكية فتثور بكل هـذه الخصال ، وتأباها فلسفة مشروعة أو حكما لا معقب له ، فالخير عندها أصل فى النفس الإنسانية ومركوز فى طبائعها ، وتلك جبلة تعلو بها على حمأة الشـــرور ودوافع القنوط والاستسلام ، يقـول مكسيم جوركى : « فى ساعات ضيق الروح ... القاسية ، أستحضر بقوة خيالى صورة الإنسان ذات الجلال ! ! الإنسان الذى تشع من روحه آلاف الشموس ويسير فى نورها المتألق جميلا عظيما كالكون إلى الأمام ونحو الأعالى . » (١)

وهذا السمو بالإنسان هو مفتاح هذه النزعة عند جوركى ،

---

(١) نذير العاصفة لجوركى ص ٢١

أو هى مفتاح أدبه توارد عليها نقاده والكاتبون فيه ، يقول سعد توفيق : فى « الايمان بالإنسان » تتلخص كل فلسفة جوركى وعقيدته [1] ، ويقول غالى شكرى : وليست الأصالة القومية هى المعنى الوحيد للأصالة فى الفن كما يراه جوركى بل هناك الأصالة الإنسانية أيضا أو أصالة الفطرة البشرية كما يدعوها » [2] .

ويلتقى هذان الكاتبان فى توكيد هذه المزية مع لوناتشارسكى ، فيقول : « هناك شعور من الإساءة والظلامة يغلب على كتابات جوركى ، والظلال التى يفهم بها العالم عميقة مخيفة قاسية . ولكن يعارضها إيمان عميق بالسعادة الإنسانية وبالمثالية » [3] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ (٢) مجلة الطليعة مارس ٦٨ ص ١٤٠
(٣) المجلة السوفيتية ع ٦ فى ٢٠ مارس ٦٨

وهذه المثـــالية أو الطيبة والخيرية (Bonté) هى الدافع بجوركى أن يثور بأولئك الأدباء الذين رصدوا أنفسهم لآثام البشرية وشرور الإنسان، يقول: «فأنتم كلكم أيها الأدباء... تأخذون من الناس قدرا يزيد عما تعطونهم، لأنكم لا تتحدثون إلا عن الجوانب الشريرة التى لا ترون غيرها ، ولـكن يجب أن تهدوا الإنسان إلى جوانب الطيبة فيه ... » [1].

وهذا الإيمان المطلق بالخيرية أو الأصالة الإنسانية قد عززها الـكفاح المشترك ووقائع الثـــورة الروسية المتصلة ، وأهوال الحربين العالميتين على وجه الخصوص ، فأنت تقـرأ إيليا إهرنـبرج وسوداريف وسيمونوف وغيرهم ممن فازوا بجـائزة ستالين فى الأدب فترى البطولة والأبطال تنزلت على

(١) نذير العاصفة ص ٤٢ ، ٤١

أيديهم من عليائها الكلاسيكى فهجرت بلاط الأمراء والنبلاء إلى ساحة الشعب وعامة الناس ، وإذا الغوغاء ومن فى حكمهم من الرعاع ينفضون عنهم كل ما نيط بهم من الضعة والحطة ويشمخون ببطولاتهم فى مواقع التضحية والفداء » (١) ، فالجمهور قد أصبح هو البطل العملاق ، إليه يرتد العمل الصالح، ومنه تنبع القيم وفضائل الحياة .

ومن الطبيعى أن تفضى بهم هذه الوحدة الجامعة فى مجابهة المصاعب والمشاق فى بناء المجتمع وصد العدو إلى التعاطف والتكاتف أو فضائل النخوة وطيب النحيزة ، وقفزت ظروف الحياة وملابسات الكفاح بمثل هذه المشاعر أو الخصال إلى مصاف المحامد والمزايا وتصدرت القيم الإنسانية جميعا ،

---

(١) روائع الأدب السوفيتى ترجمة سهيل أيوب

يقول الشاعر إيفتوشنكو (Ivtoshinko) فى تاريخ حياته :

« ولكن حياة الشظف علمتنى إيمانا جديدا بالبشر ...

فهناك الجنود خلال الحرب الذين كانوا يضعون فى يدى قطع السكر أو لفائف التبغ ، والفلاحون الذين أنقذونى من دبة غاضبة فى غابات التايجا ، والجيولوجيون الذين أعفونى من حمل المقطف الثقيل وكانوا يحملونه على أكتافهم ، والعمال الذين كانوا يعالجون الجروح التى تنشق فى قدمى من «الجسك» أو العشب المدبب وقد بنى هؤلاء الرجال منذ كنت طفلا إيمانى بالجنس البشرى ، وإيمانى بأعظم القيم الإنسانية وهى رفق الإنسان بالإنسان » [1] .

---

(١) حياتى لإيفتوشنكو ، ترجمة كامل زهيرى ص ١١٤ ، ١١٥ من هلال مايو ١٩٦٧ .

وطبيعى أن يعتد هؤلاء الناس أنفسهم أشد الشعوب تحضرا لأنهم أحفل الناس بفضائل الإنسان وأعمقهم إيمانا بعظمته ، وكان ازدهاؤهم أعظم وأشد منذ أن استقر بهم ذلك النظام الذى أمد العالم « بإنسان جديد يستطيع أن يأخذ على عاتقه خلاص الإنسانية » كما يقول سهيل أيوب ، وهذه الكبرياء عنده هى جوهر الوطنية السوفيتية ، وهذا الإيمان هو السبب فى روح التفاؤل التى تفعمها ، وهذا كله هو الأساس فى الواقعية الإشتراكية « التى ينضوى الأدباء السوفيتون تحت لوائها » [1] .

وهذا الإيمان بعظمة الإنسان وفاعليته فى التطور والبناء

---

(١) روائع من الأدب السوفيتى ترجمة سهيل أيوب ص ٤

هو الذى وقف بهم موقف التشاؤم على واقعية فلوبير وبلزاك وبودلير وثاكرى وديكنز ومن إليهم ممن ذكرنا ، فهؤلاء يقفون بالإنسان موقف العاجز عن أن يقدم الخير لنفسه أو للبشرية ، فقصاراه السخط على ما يحيق به من الشرور والآثام، أو الانتقاض على ما تجرى به الحياة من الظلم والحيف، وهذا هو الموقف النقدى الذى دمغوا به هذه الواقعية ، فهى واقعية نقدية (Critical Realism) ولا تزيد، ومن هنا جاء مدحها وذمها أو الاحتفاء بها والتنقص من قدرها ، فهم يمتدحون فيها الكشف عن مثالب المجتمع البرجوازى وعوراته، فحامى (شابير) يفر على يدى بلزاك إلى الريف بعيدا عن باريس مباءة المباذل التى تثير فى النفس «الاشمئزاز والنفور»[1]

---

(١) كولونيل شابير ص ١٠٩

وتصدأ نفس (رينيه) على يدى زولا من جراء انغماسها فى هذا « الجو الأرستقراطى الفاسد المشبع برائحـــة الفضيحة والملىء بتقاليد الإثم والخيانة »[1] ذلك «المجتمع الباريسى الراقى بكل مافيه من تحرر وانحلال »[2].

وقس على زولا غيره من أدباء هذه الواقعية الذين تكفلوا بالكشف عن هـذا الفساد والانحـــلال ، يقول فريفيل : « يقدر الواقعيون مؤلفـات القصاصين الانجليز الذين حفـل بهم القرن التاسع عشر مثل ديكنز وثاكرى وشارلوت برونتى وإليزابت جوسكيل، فقد كشف هؤلاء للعالم عن حقائق ترجح كل ما كشف عنـه الساسة المحترفون والـكتاب مجتمعين »[3].

---

(١) نفوس عارية ص ٦٢ (٢) المرجع السابق

(٣) الأدب فى ضوء الواقعية ص ١٢٥

وذلك الجانب النقدى (Critical) هو القدر الممدوح فى هذه النزعة أما ماعداه من الخصائص فهى مأخوذة به ، ذلك بأنها عجزت عن مواكبة السير واستكمال الخطو فى هذا الطريق ، فوقفت عندأوله دون أن تمد البصر إلىماوراء ذلك من التطوير والبناء .وهذا ماتكفلت به الواقعيةالاشتراكية.

وعمدة هذه المآخذ ماقدمناه من السلبية الخالصة أو مواقف العجز التى وقفوا بالإنسان عندها إزاء سوءات المجتمع وشرور الحياة ، أو إن شئت فعمدتها فى تلك « الحتمية » التى جاءتهم من الطبيعية الميكانيكية أو «الوضعية العلمية» فأنكروا معها الإنسان طاقة خلاقة أوقوة فعالة لها أثرها فى الحياة والمجتمع.

وهذا الأساس الفلسفى هو جوهرالخلل فى هذه الواقعية النقدية وماتفرع عليه من النتائج والأخطاء ، يقول انجلز :

« كانت مادية القرن الماضى ذات طابع ميكانيكى فى الغالب وذلك بسبب توقف العلوم الطبيعية والميكانيكية وخاصة ميكانيكا الأجسام الصلبة السماوية والأرضية أو بالاختصار ميكانيكا الجاذبية ، وكانت الكيمياء فى ذلك العصر ماتزال فى مرحلة الطفولة والابتداء ، وكذلك الحال بالنسبة إلى علم البيولوجيا، فكان العلماء يفحصون تكوينات النبات والحيوان ويفسرونها على أنها نتيجة ميكانيكية صرفة ، وكما كان الحيوان فى نظر ديكارت كذلك كان الإنسان عند الماديين من أهل القرن الثامن عشر ، كل منهم عبارة عن آلة » (١) .

وهذا العداء الشديد « للمادية الطبيعية » أفضى بهم إلى احتقار الواقعية النقدية أو طبيعية « زولا » على وجه الخصوص

---

(١) التفسير الاشتراكى للتاريخ لانجلز ترجمة البراوى ص ٤٦

لما فيها من هذه الآلية الصماء أو الحتمية التى وقفت بالإنسان عبداً «للقضاء والقدر»[1]، أو إن شئت فعبد «للنظام الطبيعى» الذى زعموه وزعموا ألا حيلة فيه للانسان [2]، وتأتى المادية الجدلية فتنظر إلى العالم على أنه «عملية تاريخية» [3] لا يعلو الإنسان عليها ولا يسفل، فلا هو السيد المتعالى ولا التابع المقود وإنما وسط بين هـــذا وذاك، يقود ويتبع ويؤثر ويتأثر، ففكره لا يعلو على عمليات هذا التطور، والتطور لا يتطور إلا بما يبذله من الجهد أو النشاط، يقول فريفيل: «وقد بلور إنجلز فيما بعد هذه الفكرة الأولية فقرر أن علم الطبيعة وكذلك الفلسفة أهملا حتى اليوم تأثير نشاط الإنسان

---

1 الأدب والفن فى ضوء الواقعية ص ١٣٦
2 المرجع السابق ص ١٣٨
3 التفسير الاشتراكى للتاريخ ص ٤٨

العملى فى أفكاره ، فهما لم يدركا إلا الطبيعة منعزلة فى ناحية، وإلا الفكر منعزلا فى ناحية أخرى ، وعلى ذلك يكون تغيير الطبيعة بواسطة الإنسان هو على وجه التحديد المصدر الأساسى المباشر لأفكار الناس ، بخلاف ما يظن من أن الطبيعة وحدها وعلى حالتها القائمة هى المصدر المذكور ، وهذا المذهب الواقعى الجديد الذى يقوم على رد الفعل المتبادل بين الإنسان وبين مجتمعه فى محيط التطور التاريخى ، أظهر عجز المذهب المادى الميكانيكى الذى نادى به «الانسكلوبيديون» ، وكذلك المذهب الإنسانى الذى قرره فيورباخ ، ولم يعد الإنسان بعد ذلك روحا مجردا أو محورا جامدا تدور حوله الطبيعة » [1] .

وهذا الموقف الفعال للانسان أو الأثر المتبادل بينه وبين

(١) الأدب والفن فى ضوء الواقعية ص ٤٦

المادة هو جوهر التطور التاريخى أو العملية التاريخية ، ولا نعنى بالمادة هنا الجوامد أو الطبيعة الساكنة وإنما نعنى بها الأوضاع الاقتصادية أو النظم أو القيم أو إن شئت فالنشاط الاقتصادى أو العلاقات الاقتصادية التى لا تنفصل عن الإنسان ولا ينفصل عنها الإنسان بحال ، وهذا النشاط أو هذه العلاقات أفضت إلى الصراع الطبقى نزولا على حكم الديالكتيك أو قانون الجدل الذى يحكم حركة التاريخ ، وهذا الصراع الطبقى قد أشرف على غايته لأنه صراع بين البرجوازية التى يعتورها الخلل ويداخلها الفساد وبين « البروليتاريا » أو الطبقات الكادحة التى تؤذن كل الدلائل العلميـة والاقتصادية والفلسفية بانتصارهـا ، وفى انتصارها انتصار للبشرية على الظلم والاستغلال ، وحد للصراع الطبقى ، فلاشك عندهم أن هـذه الظواهر الشاذة أو المجحفة فى

تاريخ البشرية من مقتضيات التملك واحتكار أدوات الإنتاج وذلك هو صلب «البيان الشيوعى» وجوهر فكرته التى توارد عليها ماركس وانجلز كلاهما ، ومجمل هذه الفكرة «أن طريقة الإنتاج والتبادل الاقتصادى الشائعة فى كل حقبة من حقب التاريخ بما يتفرع عليها من التنظيم الاجتماعى تشكل الأساس الذى ينبنى عليه التاريخ الفكرى والسياسى لهذه الحقبة والذى به وحده يمكن تفسير هذا التاريخ .

وإنه بناء على ذلك كان تاريخ البشرية بأسره منذ انحلال المجتمع القبلى البدائى وملكية الأرض المشاع ، تاريخ صراع طبقى ونضال بين المستغلين والمستغلين ، أو بين الطبقات الحاكمة والطبقات المهضومة ، وتاريخ هذا الصراع الطبقى يؤلف سلسلة من التطورات التى بلغت اليوم المرحلة التى

لاتستطيع فيها الطبقة المهضومة أو المستغلة وأعنى بها البروليتاريا أن تتخلص من نير الطبقة الحاكمة المستغلة وهى البرجوازية دون أن تخلص المجتمع بأسره فى ذات الوقت وإلى الأبد من كل صنوف الاستغلال والظلم ومن كل مظاهر التميز والصراع الطبقى » (١) ، والماركسيون يعتدون هذا التحرر أو التحرير أمرا محتوما وغاية يفضى إليها التاريخ لا محالة أو خاتمة طبيعية ينتهى إليها هذا الصراع ، ويقدمون بين يدى هذا الحدس أو هذه النبوءة مالا حصر له من البراهين العلمية والحجج الفلسفية والأدلة التاريخية والمبادىء الإقتصادية وكلها شاخص إلى مايداخل هذا المجتمع الرأسمالى من الخلل الطبيعى وما يعتور أسسه من التفكك الحتمى والانحلال الذى لامحيص

(1) Marx : Copital & Manifisto p. 416

عنه ، وهكذا نرى انتصار البروليتاريا على أيديهم أمرا مفروغا منه ينتهى به هذا الصراع القبيح وتنحل معه عقد الاستغلال والاضطهاد .

ذلك هو منطق التاريخ أو تلك هى الحتمية التاريخية التى ثار حولها الجدل (١)، إلا أنها أفضت بالأدب إلى قضايا أعم من قضايا النفس الرومانتيكية وأبعد من قضايا الواقعية النقدية أو الانتقادية ، وأصبح الأدب موكلا بما لا حصر له من قضايا « المذهب » . يزعزع تفاؤل العالم البرجوازى ويفيل رأيه فى يومه وغده ، ويكله إلى التشكك واستشعار الضياع بما يوقفه عليه من الخلل والفساد، يقول فريفيل: « فالقصة ذات الاتجاه

---

(١) عقم المذهب التاريخى لكارل بوبر ترجمة صبرة وفكرة التاريخ لكولنجود ترجمة محمد بكير

الاشتراكى تؤدى رسالتهـــا على الوجه الأكمل حين تحطم بتصويرها الصادق للعلاقات الحقيقية هذه الأوهام العرضية المستمدة من طبيعة تلك العلاقات ، وتزعزع تفاؤل العـــالم المستغل ، وتحمله على الشك فى دوام نظامه القائم » (١) .

وهكذا أصبح الأدب عندهم منوطا بالتفسير والتأويل « يتقصى الأسباب ويكشف دواليب المجتمع ، ويستخلص من تكاثر الأحداث وتعقدها مفهومها العميق وحركتها العامة » (٢) ، فالأدب فى قصاراه « رأى فى الوجود » أو « موقف معين إزاء النظام الاجتماعى القـــائم » أو هو آخر « نقد وأمل واتجاه » (٣) .

وكل فنان يعمى عن الاتجـــاهات الاجتماعية « تفقد

---

١ الأدب والفن فى ضوء الواقعية ص ١٤٥
٢ المرجع السابق ص ١٤٦ ٣ المرجع السابق ص ١٤٥

أعماله كثيرا من قيمتهـا » ، ويظهر تهافتها وسقوطها فى هـذه المعايير ، و «هـذه حقيقة مهمة ـ كما يقول بليخـانوف ـ فى تاريخ الأدب والفن على السواء » (١) .

وهـكذا أصبح الواقع بـين أيدى هؤلاء الفلاسفـة والأدباء والنقاد هو واقع بعينه لا ماتجرى به أمور الحياة ، يقـول منـدور : « وفى موسكو التقيت بالـكاتب الـكبير سيمونوف الذى يحتل مـكان الصـدارة بين كتاب الاتحـاد السوفيتى وسألته لماذا يؤاخذ « اهرمبورج » على تصوير شخصيات سلبية متخاذلة إذا كانت هذه الشخصيات توجد فى واقع الحيـاة ؟

فأجابنى ... إن مانسميه واقعا ليس إلا الصورة الذهنية التى لدينا عن الحياة ، ... ولما كانت هذه الصورة ملـكنا فنحن

(١) الأدب بين المثالية والواقعية ص ٤٣

نستطيع أن نلونها باللون الذى نرى فيه مصلحة لنا ولمجتمعنا».(١)

وهذا الواقع الفكرى أو المذهبى هو المعيار الصحيح عندهم للأدب والفن، يقول فريفيل: «إن فهم عمليات التطور الحقيقية يمكن الكاتب والفنان من تحديد المعنى الصحيح للأشياء ... ويعينه على إدراك العالم الواقعى على نحو أتم وأعمق ... ، فلا يصبح إدراك المعتقدات الصحيحة الناشئة عن العلاقات الاجتماعية متوقفا على المصادفة السعيدة أو الوحى الهابط على العبقرى»(٢).

وعلى محك هذه المعايير المرصودة راح الأدب يؤجج النضال الشعبى ويرود الكفاح الثورى ويدفع عجلة التاريخ

---

(١) الأدب ومذاهبه لمندور ص ٩٢ ، ٩٤
(٢) الأدب والفن فى ضوء الواقعية ص ١٥٩

ويحطم معاقل البرجوازية وما شابه ذلك مما نيط به من أهداف المذهب ، ومطالبه الواقعة ولابد فى الصراع الطبقى، وسيطرة البروليتاريا ، يقول ماوتسى تونج : «وسوف يحل النظام الاشتراكى محل النظام الرأسمالى ، وهذا قانون مستقل عن إرادة الإنسان» (١) .

وهذا التطور الاستقلالى الذى سبق إليه ماركس، (٢) أو هذه «الحتمية التاريخية» أو حتمية التطور التى ختمنا بها الحديث تتعارض ولاشك مع ماأسلفنا من جدوى الفرد وفاعليته فى «العملية التاريخية» ، وهكذا سلبناه بالشمال ما أعطيناه

---

(١) مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج ص ٢٥

(٢) مقدمة كتابه نقد للاقتصاد السياسى ترجمة الدكتور طه بدوى ص ٩٧ من كتاب الفكر الثورى

باليمين ، فلقد حررناه من قيود « المادية الطبيعية » وما تفرع عليها من مبادىء الجبر أو الحتمية فى « الواقعية النقدية » ، وعدنا نكبله « بالحتمية التاريخية » وماتفرع عليها هى الأخرى من المبادىء المذهبية فى الأدب والنقد، وهذا تعارض ولاشك بين أول الكلام وآخره ، بل أزمة الأزمات فى هذه « الواقعية الاشتراكية » .

ولا يصرفنا عن هذا التعارض أو يحلى لنا فى التجوز عن هذه الأزمة المستحكمة ما قدمنا ويقدمون من حجج « الديالكتيك » أو « الجدل » الجامع بين التفرد والازدواج أو التناقض والتكامل أو الجبر والاختيار، ذلك بأن الماركسيين أنفسهم قد حاولوا جلاء الموقف بكل ما أوتوا من حجة ومنطق فلم يزيدوا على التوفيق بين هذا التناقض أو التضاد ، يقول

فؤاد شبل : « وقد يبدو للباحث أن تروتسكى يتذبذب عند هذه النقطة بين فكرة المادية فى صورتها المتزمتة القائمة على الجبرية وبين توفير قسط أعظم من حرية الرأى ، لكن يستبين للباحث من استقراء آرائه أنه يسعى حثيثا للتوفيق بين العاملين بمعنى إبراز أهمية الجماهير ودور الفرد » (١).

وهذا هو الرأى المتبع أو الحجة الراجحة ، يقول « أومانسكى » فى التنويه بحقوق الفرد وآماد حريته فى المجتمع الاشتراكى : « إن الاشتراكية نمط من أنماط المجتمع الذى ترتبط فيه مصالح الفرد بمصالح المجموع ، فمن خلال المجموع يتلقى الفرد ما يفى بحاجاته المادية والفكرية على أساس من

---

(١) تاريخ الثورة الروسية لتروتسكى ، عرض وتحليل فؤاد شبل ص ١٧٨ من المجلد الخامس لتراث الانسانية

النماء الاجتماعى » (١) .

وهذا التوفيق أوهذا الانتماء الاجتماعى ينال ولابد من الفرص العريضة التى يتيحها النظام « بلا حدود لكل من فى جنبيه روفائيل » على حد تعبيره (٢) .

ولا شك عندى أن مقطع الحق فى هذه القضية يتشابه الغموض والجلاء بين الخصوم والأتباع بمقدار مايتشابه الغموض والجلاء هذا الازدواج القائم بين المصطلحات المترادفة على ألسنة الماركسيين وفى معاجمهم التعبيرية من أمثال « الدكتاتورية الديمقراطية » أو « الدكتاتورية الديمقراطية الشعبية » (٣)

---

(1) Umansky : Constitutional Rights of Soviet Citizen, p. 9.

(٢) المرجع السابق (٣) راجع على سبيل المثال مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج ص ٣ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

التى لم يجر بها العرف البرجوازى أو الفكر الغربى ، ولايزيل هذا اللبس أو ينال عندى من هذا التناقض إلا « الالتزام الذاتى » (self - obligation) مبدءا يحفظ على الأدب تلقائيته (Spontaniety) وإلا وقعنا فى حمأة « الكروكية » الناشبة فى آداب اليوم وفى أغلب فنونه المقروءة والمسموعة والمنظورة على السواء .

عود على بدء :

تلك هى الواقعية بشطريها النقــدى (critical) والاشتراكى (socialist) نعود بمعاييرهما إلى أدبنا الحديث فلا نعدم فيه من النمــاذج مايستحق البحث والنقد والتقويم ، وإذا كان المقام يصرفنا عن التدقيق والتحقيق ، فإنه لاينبغى أن يصرفنا عن وصل ماقطعناه من حديث

الرومانتيكية فى أدبنا العربى، فلقد خلفتها هذه النزعة الواقعية التى لا اختلاف على اثنين من أدبائها وهما نجيب محفوظ ويوسف إدريس، فكلاهما قد تصدى فى قصصه للطبقات الشعبية هذا فى القرية وذاك فى المدينة على نحو يحتاج إلى تفصيل طويل.[1]

وعلى قمة هذا الاتجاه فى الشعر يقف عبدالرحمن الشرقاوى بما كان يتراءى إلينا عنه من غياهب السجون وعلى صفحات الجرائد منذ طلب العلم فى أواخر الاربعينيات وأوائل الخمسينيات، ولعل رسالته إلى الرئيس (ترومان) أو الرئيس الأمريكى التى نحتفل بها اليوم فى مسارحنا من الوثائق الدامغة لهذا الصلف الاستعمارى والصفاقة البرجوازية والتحلل الرأسمالى فى المجتمعات والأفراد.

ويجىء صلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى ليكون

---

(١) راجع على سبيل المثال فى مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج ص ٣، ٣١، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٤٣

كلاهما حجرا كبيرا فى صرح هذا الاتجاه الواقعى بمعنى عميق من معانيه المتعددة والتى سنفصل فيها القول بإذن الله .

وبين الرومانتيكيين الأوائل وهؤلاء الواقعيين يقف فريق من المعاصرين موقف الثورة والانتقاد على مظان الظلم والطغيان دون أن يودعوا خصائصهم الرومانتيكية فى التخيل أوالتصور والتعبير صنيسع من خالطناهم بالاسكندرية من أمثال القبانى والسمرة والأنصارى والعتريس .

ولا يعنى ذلك أن الأدب والشعر قد انتهى أمرهما بهؤلاء القليل ، فهناك غيرهم ممن جمعنا دواوينهم من أمثال الماحى والوكيل والعنتيل وعبده بدوى والفيتورى والصديق الدكتور كمال نشأت وفتح الباب ونازك الملائكة بلاشك وروحية القلينى وكلهم فى تتمة هذا الحديث لهم مكانتهم التى سنفصلها فى كتاب مستقل عن هذا الموضوع نفسه بإذن الله .

وبعـــد :

فإنى أتقـــدم بالشكر الجزيل لأستاذى الجليلين الدكتور محمد طه الحاجرى ـ رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب والدكتور السيد محمد بدوى ـ أستاذ الاجـــتماع بالـكلية لاستماعهما فصول هـذا البحث وتصحيحهما المهـــم مما قد سمعاه ، كما أختص بالشكر الأساتذة الأصـدقاء ممـن ناقشنام وجادلونا بإخلاص فى فصول منه وعلى رأسهم :

الدكتور محمـد على أبو ريان ـ أستاذ الفلسفة المساعد

والدكتور محمد عبد المتعال قدال ـ أستاذ الأدب الانجليزى المساعد

والدكتور قبارى اسماعيل ـ مدرس الاجتماع

والله ولى التوفيق ؟

حلمى على مرزوق

المدرس بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

المراجع

١ - ابن الرومى حياته من شعره - العقاد .
٢ - الأدب بين المادية والمثالية - لبليخانوف ترجمه حامد أحمد
٣ - الأدب والفن فى ضوء الواقعية - لجون فريفيل
٤ - الأدب ومذاهبه - الدكتور مندور
٥ - أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الامريكية - لجورج صيدح
٦ - الأرض لإميل زولا - ترجمة دار الهلال
٧ - اعترافات روسو - ترجمة محمد بدر الدين خليل
٨ - بلزاك حياته وأدبه - لانور لوقا
٩ - بيرون - لامينة السعيد
١٠ - تاريخ الفلسفة الحديثة - ليوسف كرم .
١١ - تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر فى الربع الاول من القرن العشرين - حلمى على مرزوق
١٢ - تطور الفكر الاوروبى فى القرن الثامن عشر - لبول آزار

١٣ ـ تكوين العقل الحديث ـ لراندال ، ترجمة جورج طعمة
١٤ ـ جون لوك ـ لعزمى إسلام
١٥ ـ حافظ وشوقى ـ لطه حسين
١٦ ـ الخمائل ـ لإليا أبو ماضى
١٧ ـ الديوان فى الأدب والنقد ـ للعقاد والمازنى .
١٨ ـ ديفيد هيوم ـ لزكى نجيب محمود
١٩ ـ رواد المثالية فى الفلسفة الغربية ـ لعثمان أمين
٢٠ ـ الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى، مقالات وأشعار ترجمة عبد الوهاب المسيرى ومحمد على زيد
٢١ ـ روائع من الأدب السوفيتى، أضمومة أقاصيص حاز كتابها على جائزة ستالين فى الأدب ـ ترجمة سهيل أيوب .
٢٢ ـ الشعر المصرى بعد شوقى ـ للدكتور مندور
٢٣ ـ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ـ للعقاد
٢٤ ـ العقد الاجتماعى ـ للوك وهيوم وروسو ـ تقديم أرنست بيكر ـ ترجمة عبد الكريم أحمد

٢٥ ـ عقم المذهب التاريخى لكارل پوپر ، ترجمة عبد الحميد صبرة
٢٦ ـ فكرة التاريخ لكولنجود ، ترجمة محمد بكير خليل
٢٧ ـ الكولونيل شابير ـ لبلزاك ، ترجمة محمود عبد المنعم
٢٨ ـ كولردج ـ للدكتور محمد مصطفى بدوى
٢٩ ـ المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر لكارل بيكر ترجمة وتقديم محمد شفيق غربال .
٣٠ ـ مدام بوفارى ـ لفلوبير ، ترجمة عباس حافظ
٣١ ـ المعرفة ـ للدكتور محمد فتحى الشنيطى
٣٢ ـ معالم النقد الأدبى ـ للدكتور عبد الرحمن عثمان
٣٣ ـ مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج
٣٤ ـ من اصطلاحات الأدب الغربى ـ للدكتور ناصر الحانى
٣٥ ـ النبى ـ لجبران ، ترجمة الدكتور ثروت عكاشة
٣٦ ـ نفوس عارية ـ لزولا ، ترجمة سامى غنيم
٣٧ ـ نذير العاصفة ـ لمكسيم جوركى ، ترجمة سعد توفيق
٣٨ ـ وحى الرسالة ـ لأحمد حسن الزيات

1— Bradly, A. : Oxford Lectures on Poetry, London, 1950

2— Bowra, M. : The Romantic Imagination, Oxford, 1961

3 — Cazamian, L. ; A History of French Literature, Oxford 1950

4 — Harvey, P. : The oxford Companion to French Literature, Oxford, 1959

5— Lanson & Tuffrau : Manuel Illustré d'Histoire de la Littérature Française, Paris 1945

6 — Leguis & Cazamian ; A History of English Literature, London, 1954

7 — Locke, J. : An Essay concerning Human Understanding, Britannica Great Books, 1952

8— Marx, K. : Capital & Manifisto of the Communist Party, Britannica Great Books, 1950

9— Mikoyan, A. I. : Speech at the 20th Cong. of the C.P.S.U., Cairo, 1956

10— Minayev, L. : Origin and Principles of Scientific Socialism, Moscow.

11— Nietzsche, F. : Thus spake Zarathustra, London, 1950

12— Picard : Le Romantisme Sociale, Brentano's, New York

13— Shelley,P. : Poems of Shelley, Oxford, 1960

14— Shipley, J. : Dictionary of World Literature, New York, 1943

15— Umansky, Y. : Constitutional Rights of Soviet Citizens. Moscow, 1955

تم بحمد الله

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية